﴿اللطائف الاصبهانية والمنن التوفيقية﴾

﴿في رحلة﴾

﴿الحاج بابا الاصبهاني داخل الممالك الفارسية﴾

﴿ترجمت بقلم﴾

(حضرة محمد افندي لطفي تلغرافجي المعية السنية)

للحاج بابا رحلة * فيها بدائع للادب
كانت بزاوية الحجو * ل من اللغات لها حجب
فجلوتها للناظري * ن بحسن ألفاظ العرب
فأنت تهادى كالعرو * س تميس في حلي الذهب
فاغنم أخي وصالها * كي ما تنال من الطلب

﴿الجزء الاول﴾

﴿لا يجوز طبع هذا الكتاب بدون اذن﴾

﴿الطبعة الاولى﴾

(بالمطبعة الخيرية بجمالية مصر المحمية)

﴿سنة ١٣٠٨ هجرية﴾

(الموافقة سنة ١٨٩١ افرنكية)

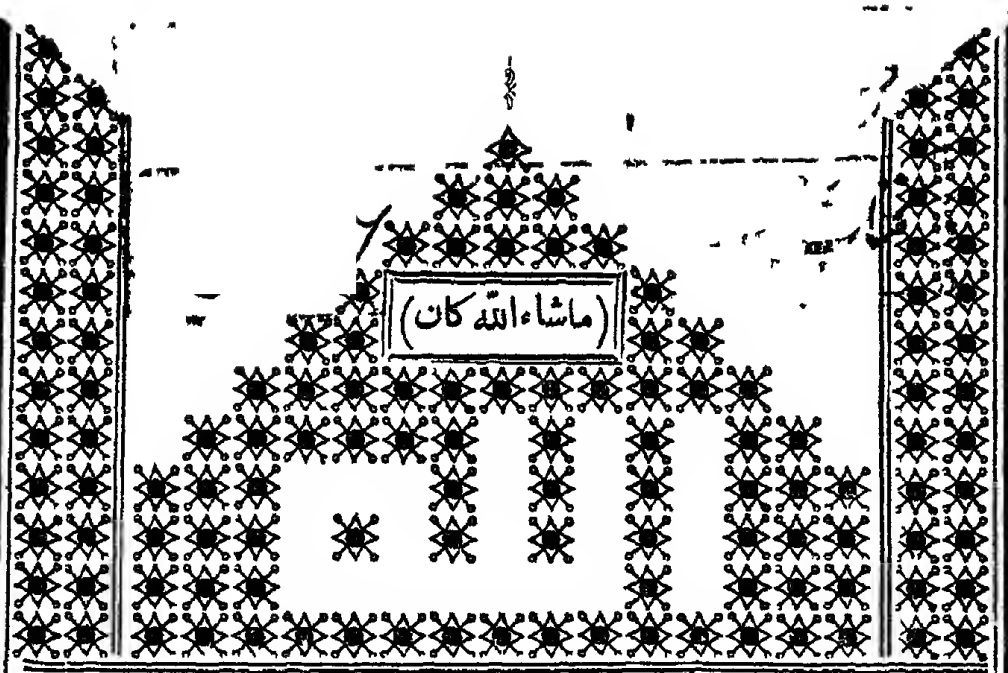

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد والانبياء والمرسلين أجمعين *(أما بعد)* فيقول الراجي عفو ربه الكريم محمد لطفي بن ابراهيم انني لما انتهيت من ترجمة كتاب تحفة المريد في زواج أودت بفريد وزها بعد الطبع نشره حتى عم البلاد بطيب نشره لما احتوى عليه من الفكاهات الغزلية واللطائف الادبية قد عثرت الآن عند من كنت أثق بوطيد صحبته على كتاب فتصفحته فاذا هو آت من غرائب السياحة بالعجب العجاب بل نزهة لأولي الالباب وروضة شرقية معجبة للطلاب جمع من لطائف الاخبار ما يحير الالباب فكنت كلما انتهيت من باب رأيت الذي يليه أعجب منه في الاغراب فانبعث قلبي لكشف دره المكنون واستخراج ما في كنوزه من جواهر الآداب والفنون لارفع عنه القناع وان كنت في هذه الصناعة قصير الباع ورأيت ان أبذل فيه جهد الاستطاعة وأنقله من اللغة

الانكليزية الى لغة البراعة لتحلى عرائسه من الآداب بتاج من الزبرجد مهداة الى الكوكبين النيرين والبرنسين الفخيمين سلالتي المجد والسودد (البرنس عباس وشقيقه البرنس محمد) أدام الله مجدهما وأقام على المشترى سعدهما متمتعين بوجود سماء المجد وبحر الجود وغرة الدهر عزيز مصر المليك الاكرم والخديوى الاعظم من حاز كل فصل على التحقيق ولى نعمتنا أفندينا (محمد توفيق)

يا أهل مصر انني ناصح * فاستمعوا نصحا كنظم الجمان
بلدتكم قد أصبحت جنة * في عصر توفيق المفدى المصان
اذ نحن في ظل المليك الذى * تشملنا منه النوايا الحسان
ومازال يولى العدل من فضله * حتى تبدى قطرنا في أمان
وكم زها للعلم من روضة * للمجتنى منها قطوف دوان
ان قصر النيل فلا تيأسوا * بنى أبى العباس خصب الزمان

أدام الله دولته واجلاله وخلد الى الابد ذكره وحفظ أنجاله وآله ماطلعت ورعت الغزاله فشمرت اذذاك عن ساعد الجد وأخذت أشرع في ترجمته وتنقيحه بحزم أسد وعزم أشد ولكنى أقول متأسفا انه قد عارضنى في اثناء الترجمة صاحبه فنظر لى شذرا واختطفه منى قسرا فعجبت وما عجبى من منعه كتابا مطبوعا قد انتشر في عالم الوجود بل عجبى من اعتقاده باستحالة وجوده وجعله في حيز المفقود فعاودت استعارته منه وتلطفت جهدى وطالما توسطت اليه باخص أصحابه فما كان يجدى فلما يئست من احياء ميت وداده وعلمت ان نجم المشترى أقرب من استجلاب مودة فؤاده عملت كل حيلة في احضار الكتاب بمعاونة أحد الاصحاب المسمى المسيو اسكندر بيانكردى حتى أرشدنى على رجل من كبار تجار وأعيان الانكليز فاطن بلندره المدعو المستر جيمس رسر

فكانبته على انه لم يرنى ولم أره ولمحت اليه بمشاحة صاحبى به على ومذ تحقق انها بلية اهتم بتحصيله وأرسله لى هدية فحمدت الله وشكرت هذا المفضال على حسن مسعاه وماغرسه فى قلبى من الجميل الذى لا أنساه ثم عرضته على صاحب العزة والسعادة والمجد وسلالة الشرف والسيادة رئيسنا الهمام الصادق المحرز قصب الفضل السابق (مصطفى بيك صادق) فشجعنى وقوانى على العمل فشكرته واستبشرت بحسن مستقبل الامل وسأشرع فى ترجمته وتعريبه وأبذل الجهد فى توضيحه وتقريبه وبما ان فيه من المعانى الرقاق مايفوق الدر فى الاتساق فرمت أن أحليها بالاشعار وأجلوها عروسا للنظار فقد تكرم علىّ حضرة الماهر الاديب والشاعر المتفنن اللبيب زميلى اللغوى الفاضل أحمد أفندى كامل بنسج بردها ونسق عقدها وعلى الله حصول المأمول فاقول

﴿الفصل الاول﴾

(فى منشأ الحاج باباوتربيته)

حدث الحاج باباعن نفسه فقال ان والدى المدعو كربلى حسن كان أصبهانى المنشأ وكان من أشهر الحلاقين بها لمهارته فى هذه الصناعة وانه لما بلغ من العمر السبع عشرة سنة تأهل بابنة شماع بجوار دكانه الا ان هذا الزواج كان منغصا لمعيشته لانه لم يعقب منها نسلا فلذلك هجرها وغض طرفه عنها ولم يمل اليها الا قليلا ولما اكتسب مالا عظيما من اتقان صنعته وتوفر أدواتها واشتهاره بين التجار ونال مالا يحصى من الثروة والافتخار ومالم ينله أحد من أبناء حرفته فى تلك الاعصار فبعد ان مكث مع زوجته عشرين سنة وهو يكلمها كالذى اعتراه من النوم سنة تزوج بامرأة أخرى خطبها من أبيها الذى كان من أشهر صيارف

زمانه

زمانه وتساهل فى تزويجها اياه بالنسبة لكونه كان يحلق له طول هذه المدة بمهارة وصناعة تحصل بهما على هذه البضاعة وبعد ان دخل بها أنتبه الافكار من كل جانب بالاهوال وكل أمر مشيب وذكرته ما يحصل من زوجته الاولى من النزاع والغيرة عند كشف ما وراء القناع فتشاور فيما يجريه نحو ذلك مع نسيبه الجديد لاخماد نار الغيرة حتى تصبح كبارد الحديد فاستقر رأيه أن يتوجه بها للحج فى هذه السنة لزيارة قبر سيدنا الحسين فى كربلاء وبذا يتخلص من تنغيصها وينجو من كيدها فاطاع الامر وجهز نفسه وأخذ زوجته الجديدة معه تاركا القديمة فى منزله بدون ان يوقفها على خبر أو تلحظ أدنى اشارة من هذا الاثر فحملت بى ووضعتنى أثناء الطريق فكنت لهما ثالث رفيق

وكان اسم والدى المشهور قبل سفره حسن المزين ولما ان تشرف بزيارة القبر الشريف الذى فى كربلاء فبالنسبة الى محبة والدتنا لنا سمتنا بالحاج وقد أطلق أيضا على هذا اللقب مدة حياتى وهو السبب فى منحى الشرف السامى بدون استحقاق لندرة اطلاقه على أى انسان الا على الذين أدوا الحج الشريف الى بيت الله الحرام وقبر النبى عليه الصلاة والسلام وكان والدى آناب عنه فى دكانه أكبر صبيانه مدة غيابه ومذ حضر أقام فى صنعته بهمة ونشاط زائد لانه كان يحترف بصنعته أثناء السياحة حتى اكتسب اسم (مسلم غيور) اذ كان ذلك داعيا لجذب قلوب الاعيان والتجار اليه أكثر من قبل وأما أنا فقد رأيت ان فى عزم والدى أن يجعل مستقبل تربيتى قاصرة على صنعة القابش وانى لا أتحصل على شئ من المعارف سوى بعض أشياء دينية تختص بالعبادة والصلاة فلولا ما ندار كنى الله به من تسخير أحد فضلاء ذلك العصر بارشادى لبقيت مغفلا من كل المعارف وذلك ان الفاضل السالف الذكر كان يتردد الى والدى ليحلق له

مرة فى كل أسبوع وكان من دأبه اظهار رغبته وميله لتعليم الاولاد بخلوص نيته ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى فطلبنى منه فقبل والدى وأوصاه بالالتفات نحوى فانجز الفقيه وعده ووفا بعهده وعلمنى القراءة والكتابة ومازلت أعلو درجات النجاح تحت لوائه طالبا للفلاح لاأخرج من كمينه حتى انه فى مدة يسيرة صرت أفسر القرآن وأشرح معانيه وأكتب خطا جميلا وبعد خروجى من مكتبى كنت أتوجه يوميا بعد خلاص الدرس الى دكان والدى حيث فيها تعلمت أول حرفتى حتى اذا اضطره الحال يأذن لى بالمساعدة معه رغبة فى تمرينى على هذه الصناعة بحلق رؤس المكاريه والجمالة الذين كانوا من أول الامر يدفعون لى أجرة عظيمة لما كانوا يرونه من الراحة وسرعة يدى

ولما بلغت سن الستة عشر سنة كان يشق على الوقوف على حالتى وهل أتممت صنعتى أومازلت صبيا قابلا للتعليم لانه بخلاف ما تعلمته من حلاقة الرأس وتنظيف الآذان وقص اللحية ومساواتها اكتسبت الشهرة التامة فى اتقانى وظائف الحمام حيث لايوجد خلافى له معرفة تامة بالدلك والتكييس المختلف أجناسه كالتى تعلمته فى الهند أوكشمير أو بلاد الترك وصنعة خصوصية أيضا لايعرفها أحد فى طقطقة المفاصل ورنة أصوات كفوفى على بعضها وكذا شكرا لاستاذى الفقيه فانه علمنى الاشعار والقصائد الكافية التى بها يمكننى احياء وتزيين المحاورة بين الاصحاب بواسطة ابراز بعض اقتباسات مستخرجة من مؤلفات سيدى حافظ وخلافه حتى ان هذا الفن الذى كان يخرج من فمى بصوت رقيق صيرنى محترما وأعظم رفيق عند جميع أولئك الذين كانت رؤسهم وأعضاؤهم فى قبضة يدى وبالاختصار فانى أقول الحق عن نفسى ان الحاج باباهو الرجل وحيد زمنه وفريد عصره بين الناس أصحاب الذوق والرقة والانبساط كما قيل فيه

لاتحقرن

لا تحقرن الدهر حاف نباهة * ولو انه يعزى لايسر محترف
فالحاج بابا وهو حلاق غدا * من صغره بالجد قد حاز الشرف
كالدر ما بين الجواهر قدرتى * جيد الغوانى بعد أبيات الصدف

ولمناسبة ان دكان والدى كانت بالقرب من الخان الملوكى وهو أعظم محل فى المدينة تتردد عليه الناس من كل فج فكانت ملجأ للاجانب والسكان من تجار وأعيان وعلى انى ما كنت أنتفع منهم بسوى أجرة الحلاقة المعتادة فانهم لا زالوا يزدحمون بدكانه بالنظر لتسليتهم بما يجدونه من نجابتى وفصاحتى وعذوبة ألفاظى التى أطرب منها السامعين واشرح بها قلوب المتفاكهين

بنى ان البر شيء هين * وجه طليق وكلام لين

هذا وفى يوم من الايام حدث ان أحد التجار الذين كانوا يأتون الى الدكان وهو تاجر بغدادى اشتد ميله نحوى وكان على الدوام يلح ويشدد على بالاصغاء اليه أكثر من التفاتى لمصالح والدى الخبير بكل أمر ثم أراد أن يكلمنى باللغة التركية ولمعرفتى بعضا منها كنت أخاطبه بها قليلا فلما علم ما أنا عليه من المعارف ابتدأ يهيج أفكارى ويدهش حواسى باوصاف جملة مدن مختلفة جميلة المنظر بهيجة الرونق ساح فيها حتى اشتاقت نفسى للسياحة وكان التاجر اذ ذاك محتاجا لكاتب يضبط حسابه ويدبر أشغاله وبما رآه منى من الدراية فى صنعة الحلاقة وفن الكتابة قدم لى مرتبا وافرا للدخول فى خدمته فلذلك قبلت منه لتكرار طلبه وشدة رغبته وبوقتها أخبرت والدى بهذا العزم فلما سمع منى ذلك غضب غضبا شديدا واجتهد فى منعى عن هذا المشروع الذى ما له الا الاخطار وتحملى تقلبات الزمان فاريته ما فى ذلك من عظيم الفائدة فلما سمع ما قدمه لى التاجر من المرتب الجسيم العائد عليه بالمنفعة خطر بفكره انه لا بد ان يأتى وقت يستحيل فيه انفراد

بمفردي فاذن لي في السفر ودعا لي بالبركة وأعطاني صندوق أمواس وودعني وعلامات الحزن ظاهرة على وجهه ولكنه كان مخفيا له

أخفيت عنه الحزن جهدي رأفة * مني عليه ورحمة لفؤادي
كي لا أراه آسفا فيزيدني * حزنا طريفا فوق حزن تلادي

وقد اشتد علي والدتي الاسف والحزن حين بلغها خبري وتلبست بالخوف العظيم والجزع لان الشفيق بسوء الظن مولع وبالنسبة لما كنت أمنيها به واسكن خاطرها مما أبشه لديها من رجاء مستقبل سعادتي بهذه الرحلة فما كان ذلك ينتج منه أدنى تسكين لخاطرها أو تلطيف لغضبها لان العجم لا يعتقدون نجاح حالة مبدؤها خدمة رجل سني وصعبت عليها هذه الحاله ولكن لما لم تتمكن من ابطال هذا العزم فلمحبتها الاموية أعطتني صندوقا ملانا من البقسماط وعلبة كبيرة داخلها مرهم من المراهم ذات القيمة وقالت انه دواء لشفائك اذا لاسمح الله حصل جبر في عظامك سيما من الآلام العصبية

ولما أردت تقبيل يدها عند الوداع قام بها من الشفقة ما أوجبها ان تمسكني بكلتي يديها فلم استطع ان ألفت بوجهي الى باب المنزل ولم أتخلص منها الا بصعوبة زائدة وهي ترجو عودتي سالما غير مصدقة بنجاتي في هذه السياحة التي نشأ مت منها ثم ودعتها وهي باكية العين شاكية غراب البين

فلا تدن عليك جهدي دائما * ولا هجرن الاهل والاصحابا
كيف التصبر بعد بعدك انه * قد غال عقلي والفؤاد أذابا
فارقتني فأرقت لا تبعدكم * بلقاك قد لذ المنام وطابا

﴿الفصل الثاني﴾

(ابتداء سياحات الحاج بابا ومقابلته مع التركمان وأخذه أسيرا)

فعزم

فعزم عثمان أغا وهو سيدى التاجر على الرحيل الى مدينة مشهد لجلب جلود غنم بخارى ثم يتوجه بها الى اسلامبول ليبيعها هناك وكانت هيئته قصير القامة غليظ الجسم ذا أنف اسفنجية كبيرة وأما أطواره فكان رجلا مسلما صالحا للغاية متمسكا بالديانة وأداء الفروض ولم أره يوما ما يتأخر عن خلع جواربه مهما بلغت درجة البرد اتماما لفرائض الوضوء ولهذا يكره الطوائف التابعة للامام على كرم الله وجهه كراهة تامة وكنت أشاهد فيه هذه الحالة مدة اقامته فى بلاد العجم وله ميل زائد الى التكسب ولا ينام مالم يكن فى أمان من وضع دراهمه فى محل لا يخشى منه الا انه مع هذا كله لا يتساهل فى لذة نفسه فكان يكثر من شرب الدخان والطعام الدسم ويتعاطى النبيذ خفية مع انه كان ينذر ويهدد بالتلف والهلاك الاخروى الذين يراهم منهمكين فى شربه جهارا فهو كما قيل

يحرم فيكم الصهباء صحا * ويشربها على عمد مساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى * فمن جهتين لا جهة أساء

وبعد أن أمر القافلة بالتجمع فى فصل الربيع أخذ يجهز نفسه للرحيل فاشترى بغلة قوية مرهونة خاصة لركوبه وقدم لى حصانا أركب عليه ولم يكن خاصا بى بل كان عليه الكليان (وهو نوع من شبكات الدخان يشبه الشيشة الهندى) وقلايه وزمزميه جلد وفحم وزيادة على ذلك خرجى أيضا وكان معنا عبد أسود يطبخ لنا ويفرش السجاجيد وينزل الاثقال ويحملها على البغال ولما يركب كان يبسط رجله على البغل لما عليه من جملة الادوات والسجاجيد وآلات المطبخ والبغل الثالث عليه صندوقا السفر داخلهما خزينة سيدى وكافة الاشياء الضرورية وجميع ما يلزمنا ومن شدة حرص سيدى عثمان أغا قبل قيامنا بيوم خاط فى حشو لبدته التى تحت عمامته الثقيلة خمسين دينارا بدون ان يعلم بها أحد سوانا

والقصد من ذلك صرفها عند حصول حوادث تطرأ عليه على حين غفلة وأما باقي النقدية المخصوصة لمشترواته التجارية فمخيطة في أكياس جلد أبيض صغيرة وموضوعة في وسط الصناديق محفظا عليها اما القافلة التي تجهزت للسفر فتحتوي على خمسمائة حصان ومائتي جمل وأغلبها محمل بالتجارة لشمال العجم ويصحبها نحو المائة والخمسين رجلا بين تجار وخدم ومرشدين للقافلة وبخلاف ذلك استصحب هذه القافلة شرذمة قليلة من الحجاج قاصدين زيارة قبر الامام رضا في مدينة مشهد وكانوا يصفون هذا الموكب بالتقوى والطهارة وكل من يصحبه يتبارك به ويعتبرون ان أربابه لهم المقام الاعظم وذلك بالنسبة لعزمهم الممدوح لزيارة تلك الجهة كما يفعلون بالناس الذين يحجون

ولما استعدوا للرحيل أخذ كل انسان يسلح نفسه اما سيدي الذي كان بمجرد سماعه صوت بندقية يميل برأسه ويصفر لونه عند رؤيته سيفا مسلولا ما أدري الا وظهر امامي متقلدا بقربانة طويلة معلقة بالعرض على وسط ظهره وسيف منحني في جنبه وزوج طبنجات كبارنا فذ من منطقته واما أمامه فاغلبه مغلول بعلب الخراطيش وآلاتها وأوعية البارود ومدكات البنادق وخلافها كما غمزناه الهمزاني بقوله

توشحت أبا الفتح * بهذا السيف محتالا
فما تصنع بالسيف * اذا لم تك قتالا

وكنت أنا بالمثل متسلحا من الرأس الى القدم وزيادة عما يحمله سيدي كنت متزينا بحربة عظيمة وأما العبد الاسود فمعه سيف بنصف نصل وبندقية بدون زناد

ثم قنا في طلعة النهار من جهة شمال أصبهان بدلالة جاويشية الحجاج وقد أعلنونا بالقيام بواسطة أصوات عالية والضرب على طبلهم النحاس وفي

أقرب وقت تصاحبنا بمن كانوا معنا من السياحين اذا الجميع متسلحون ومع كل هذه الاستعدادات الحربية أظهروا البعض منهم علامات الهدوء والاطمئنان بحالة التواضع والخضوع فسررت من هذه الهيئة اللطيفة الا أنه ما كان يمكنني الراحة والقفز بحصاني خوفا من غضب سيدي الذي كان بعض الاحيان لما يراني أفعل ذلك يصيح نحوي بنغمة مغضبة ويأمرني بالسكون قائلا ان الحيوان لا يتحمل السفرية بأسرها اذا أتعبته بهذه الافعال الصعبة التي لا تتأتى الا من رجال حربية أما أنا فصرت محبوبا لدى عموم القافلة وحلقت لكثيرين ثاني يوم الرحيل وأما سيدي فاني لا أقدر أن أصف مقدار ما سليته وسروره الزائد مني بمجانستي له فانه بعد حصول التعب الشديد له ونزوله من فوق بغلته كنت أستعمل له صنعة الاستحمام لازالة خذل أعضائه بتكبيس جميع جسمه وتدليكه بيدي

هذا وما زلنا سائرين بدون أن يعيقنا عائق أو يسوقنا سائق حتى وصلنا مدينة طهران وأقمنا بها عشرة أيام لراحة البغال وازدياد عددنا بالذين يرغبون في السفر معنا من تلك الجهة

اما الخطر الذي سيحصل لنا فهو من قبيلة يقال لها التركمان وهي التي كانت مع ملك العجم في احدى الحروب وقد اشتهرت بقطع الطريق وتقدم انها هجمت على قافلة ونهبتها وأخذت من بها أسيرا وهكذا كانت الاخبار المخيفة التي تنقل عن التركمان حتى ان كثيرا من فريقنا ومنهم سيدي بالاخص حصل لهم الفزع الاكبر من سفرهم الى مشهد ولكن الاموال العظيمة التي أخذها في ثمن الجلود المبيعة في اسلامبول أدخلته الغرور وألزمته جبرا عن أنفه بعدم الانزعاج قط لما هو عليه من الميل الشديد في حب طلب المكاسب حيث قيل

بقدر الكد تكتسب المعالى * ومن طلب العلا سهر الليالى
ومن طلب العلا من غير كد * أضاع العمر فى طلب المحال

وكان المعرّف فى اثناء هذه المدة يجمع الحجاج فى طهران وما يجاورها لانتظار حضور قافلتنا فلما وصلنا تلك الجهة أخبرنا انه جهز فرقة عظيمة للسفر معنا وأكد لنا انها تقوية لنا وأوصانا بوجوب الترحيب بها نظرا للخطر الذى سيصادفنا عن قريب وكان هذا المعرف رجلا مشهورا بمعرفة الطريق ما بين طهران ومشهد ولذا اكتسب الصيت بقطعه غير مرة رأس تركمانى حيثما يصادفه فى طريقه ويرى من هيئته انه جسور شديد البطش لطول قامته وعرض كتفيه وغباشة وجهه المحترق من حرارة الشمس ومتزين بالشعر المسترسل من رأسه على عارضيه بهيئة اللحية ولابس درع حديد وعلى رأسه خودة بها جدائل مفتولة من الحرير تهف على أكتافه وبجنبه سيف مقوس وبمنطقته طبنجات وعلى ظهره ترس وفى يده حربة طويلة كانه يطلب البراز والقتال وصار يتفاخر ببسالته ويتباهى بشجاعته ويتكلم باحتقار كلى عن التركمان وبذلك عزم سيدى ان يركن على هذا الرجل فى سفره ويكون مرافقا له تحت حراسته ثم استعدت القافلة للقيام بعد عيد النيروز باسبوع وبعد ان أدوا صلاة الجمعة فى أكبر جامع فى طهران تحتفل فيه الناس ذلك اليوم توجهنا القرية الشاه عبد العظيم حيث تقوم منها عموم القوافل للسفر ولما وصلنا تلك القرية قمنا منها وكنا نمشى مراحل خفيفة حتى وصلنا البلدة جافة قفرة وبها قرت أعيننا وهدأت قلوبنا وكنا كلما نصل لقرية أو نتقابل مع سياحين تنادى الجاويشية (بسم الله والصلاة على النبى) بنغمات عالية طنانة ويردفونها بالضرب بسيور جلد على طبولهم الموضوعة داخل منحنيات سروجهم وكانت أغلب مسامرتنا عن التركمان

هذا وان كنا أجمعنا آراءنا بانكسار العدو وكونه فى تلك الجهات الا اننا صرنا نسلى أنفسنا مؤملين انه مهما بلغ عدده لا شئ يوقف عدد ناضده لما نحن عليه من الاهبة والاستعداد ونحن ننادى (باسم الله الله أكبر) ونقول من هؤلاء الكلاب الذين يتجاسرون بالهجوم علينا ونحن الليوث الهوامر والاسود الكواسر والابطال الفواتك وصار كل منا يتفاخر ويعجب بقوته وشدة بأسه اما سيدى الذى بخلاف غيره فاسنانه تخبط بعضها لهذا المحذور الخطر مع افتخاره بما سيجريه من الشجاعة عند الهجوم فكان كل من يسمع كلامه يظن انه لم يشتغل بشئ مدة حياته الا بمحاربة وقتل التركمان ولما رأى الجاويش ان صوت سيدى يعلو على جميع الاصوات داخله الغيرة العظيمة حيث رآه يظهر نفسه انه أقوى وأشجع هذه القافلة ولم يعلم انه كما قيل

واذا ما خلا الجبان بارض * طلب الطعن وحده والنزالا

فصاح بصوت عال قائلا لا يلزم أحد منكم التكلم فى حق التركمان مالم تنظروهم ألم تعلموا انهم الملقبون بأكلى السباع ولم يسلم أحد من ضرر قبضتهم وبوقتها صاريبرم فى شواربه جهة أذنيه وما كان سيدى يقول الصدق الا عند قوله ان الشاب مهما بلغ استعداد آلاته الحربية وكان عنده من القوة مايضاهى قوة الفيل فانه يكاد ان يمزق من الخوف حبال الكعب اربا أى قطعا يوم الحرب (وهى الحبال التى تستعمل فى الشرق لصيانة الخيل) ولم يرسيدى عثمان أغا طريقة بها يأمن على نفسه من غوائل العدو فى حال الهجوم يتنعم بها عن رفقائه فى المسير أحسن من جعل نفسه من أتباع سيدنا عمر رضى الله عنه ولكى يشهر نفسه بهذا المذهب مزق قطعة شاش خضراء ولفها على عمامته وجعل نفسه على شكل أمير أو رسول من النبى الكريم عليه السلام على انه ما كان يفارق بغلته التى

يركبها ولم يتحد مع أحداً كثر من اتحاده معها

ولما قطعنا مدة أيام ونحن سائرون على هذه الحالة ماندرى الا والجاويش نادى بصوت مزعج يريد به أهمية التفاتنا اليه وقال اننا الآن واصلون لجهات التركمان الذين ينتظرون فيها القوافل وأوصانا بالسير جميعا حزبا واحدا وبالاستعداد للمقاومة العنيفة اذا حصل الهجوم علينا فأول حالة جبرية حصلت لسيدى عثمان أغا عند سماعه هذا النداء هى كونه قفل بندقيته ورفع طبنجاته وأدخل سيفه فى غمده ووضعها على احدى البغال الحاملين العفش وتوجع من حصول ألم بعدته تاركا جميع اشغاله الحربية التى كان فى أوائل الامر مشغولا بها وأدرج نفسه فى عباءته وظهر على وجهه المذلة والفزع وأخرج سبحته وصار يتلو عليها (سبحان الله واستغفر الله) وبهذه الحالة استعد لان يسلم نفسه للقضاء والقدر مع انه ظهر ان معظم اعتماده لحماية نفسه على الجاويش الذى رأى منه عدم مبالاته بالاخطار لاسباب أخرى تحققت عنده وهى تحويطه بالطلاسم العديدة والتمائم المربوطة على ذراعيه وبذا تأكد له ان ذلك يبعد عنه سهام التركمان فى أى وقت كان

ومازال الركب سائرا على هذا المنوال يتقدمه الجاويش بحامه ذى النصلين وبرفقته فارسان من أشجع القافلة متباعدون عنها مسافة قليلة بصفة غفراء لها وصاروا يظهرون قوتهم ويشجعون أنفسهم كل لحظة ويطلقون خيولهم فى البطاح ويلعبون بالاسنة والرماح ويضربون بها الهواء وهم لا يبالون بعدا وبينما نحن على هذه الحالة اذ سمعنا طلق البنادق والرصاص وأصواتا وحشية خرقت آذاننا فقلنا شئ خفنا منه فوقعنا فيه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

فعند ذلك وقف الجمع من تعبا ونأخرت الرجال والابطال والحيوانات عن

المسير وصاروا يضطربون كفرقة العصافير عندما يرون صقرا يهم عليها من بعيد فانضممنا من الخوف وصرنا كجسم واحد ونحن لا نجد مساعدا الى أن تحققنا هجوم طليعة من التركمان علينا وبوقتها اصفر لوننا واقشعر جسمنا وتغير حالنا والبعض ممن كان ذا قوة فر هاربا من جهة والبعض من جهة أخرى ومن ضمنهم سيدى عثمان أغا ولكن كيف السبيل وقد أحاط بنا الهلاك الوبيل وتسلط علينا الخوف الشديد وانحلت قواهم وهم يصيحون ويتضرعون ويقولون يا الله يا الله يا أئمة الدين ويا محمد يا نبى الله وخاتم المرسلين راحت أرواحنا وفقدنا أموالنا وأحاق بنا العطب وعن قريب يدركنا الموت المبين فيا مغيث المغيثين أغثنا بحق الرسول الامين وفى أثناء ذلك نزلت المكاريه الاحمال عن البغال فى هذه الفلاة وهربوا طالبين النجاة وكان العدو يتبعنا برمى السهام ويتساقط علينا كالغمام حتى لحقونا واحتاطوا بنا وأصبحنا غنيمة باردة بين أيديهم أما الجاويش الذى خلص نفسه من جملة معارك كهذه فعندما رأى العدو فر هاربا ولم نر ولم نسمع عنه شيأ هذا واستمر العدو ينهب العفش والاحمال وانتشر بجيشه العرمرم فى الخلاء وملأ بعدده وعدده الصحراء

فلما رأى سيدى ذلك الامر المهول ولم يجد له مفرا من المقدور اندرج ضمن بالتى بضاعة لينتظر ما يكون من هذه الواقعة فاكتشفه أحد التركمان ذو الهيئة الهائلة والمنظر المخيف بحسمه فى أول الامر على ظهره ضمن الطرود فلما أحس بشئ يتحرك على ظهره كالوسوسة طرحه على الارض فقام مرعوبا مفزوعا يتذلل اليه وهو لا يصدق بالنجاة بغاية الخضوع والمسكنة واجتهد فى ملاطفته وتهدئة خاطره وهو يستغيث بسيدنا عمر لاعتقادهم فيه وبسبب الامام عليا كرم الله وجهه لكراهتهم له ولكن أين من يسمع ومن دوائه ينجع فما ازداد التركمانى الا صلابة

وقساوة وجرده من ملابسه ولم يترك عليه سوى عمامته لقبح لونها مع قميصه ولباسه وأخذ برنسه اللطيف وسرواله ولبسهما أمامه ولكون ملابسي رثة لا تستحق السلب سمح لي بعدم قلعها وبذلك استحوذت على صندوق أمواسي وهذه منه عظيمة بالنسبة لما حصل لسيدي

وعندما أتم التركمان السلب ابتدؤا يوزعون الاسرى على بعضهم وركب كل منا خلف خيال بعد ان عموا أعيننا لئلا نضل عن الطريق ثم استمروا سائرين بنا طول النهار حتى أنزلونا ليلا في واد صغير واستراحوا فيه تلك الليلة وفي الصباح كشفوا عمامتنا فوجدنا أنفسنا في مسالك لا يعرفها الا التركمان ثم قاموا ومازالوا سائرين في أودية معرقلة وجبال مقفرة حتى وصلنا الى خلاء فسيح قدر مد البصر كاننا في آخر حدود الكرة فوجدنا هناك مزدحما بخيام سود من خيام العدو وأغنامهم ومواشيهم وهناك أنزلونا ننتظر ما يكون من أمرنا

﴿الفصل الثالث﴾

(الكلام على من وقع في أيديهم الحاج بابا وما ناله من السعادة والحظ الوافر باسباب أمواسه)

أما التوزيع الذي حصل في الاسرى بين التركمان فكان في غاية الانتظام لان من حسن البخت كوني أنا وعثمان أغا وقعنا في يد سيد واحد وهو ذلك اللص الوحشي الذي ذكرته سابقا واسمه أصلان سلطان رئيس جردة عظيمة مبدؤها أول نزولنا من الجبل لغاية وصولنا للخلاء الفسيح وخيامه منصوبة على تخوم أخدود صغير ممتد وفي وسطه قناة ماء متفرعة لتلول مجاورة له وبه مراعي مخضرة مملوأة بالمواشي المنتشرة عليها بقدر ما يرى الانسان اما رفقاؤنا المصابون معنا فحملوهم بلهة أبعد منا داخل هذه البلدة

ووزعوهم على قبائل التركمان المختلفة القاطنة فى هذا الاقليم
وبمجرد ظهورنا فى هذه البلدة قامت العساكر جميعها وأحاطت بنا من كل جانب للتفرج علينا اما قائدنا فاستقبلوه بالبشر والترحيب وهم يهللون باصوات عالية فرحا بقدومه منصورا وأما عنا فحدث ولا حرج عما حصل لنا من استقبال كلابهم فانها لما رأتنا هجمت نحونا عصبة كبيرة من كلاب الغنم وظلوا ينبحون علينا حتى كادوا يبتلعوننا حيث علموا اننا غرباء فقلت لا اله الا الله أهذا يقابل بالبشر والفرح ونحن نقابل بالذل والنبح بين هؤلاء الاجرام والقوم اللئام فلعل الله يأتينا بالفرج القريب ويأخذ بناصر الغريب والحمد لله على هذه المصيبة

يا نائم الليل فى جثمان يقظان * مابال عينيك لا تبكى بتهتان
ان الليالى لم تحسن الى أحد * الا أساءت له من بعد احسان
أما رأيت صروف الدهر ما فعلت * بالهاشمى وبالفتح بن خاقان

وفى هذا الوقت حصل لسيدى نوع احترام بالنسبة لشاله الاخضر المعمم به ولكن بمجرد ما رأته البانو (وهى الزوجة الاولى للقائد كما يلقبها التركمان) مالت نفسها اليه وأخذته بوقته فلم يبق على رأسه غير قاووقه المحشى الموضوع فيه دراهمه فاستحسنته احدى زوجاته الاخرى فأخذته قائلة انه ينفع لحشو رحلى الذى أضر بظهر جملى وحذقته بين الادوات فى أحد أركان الخيمة بعد ان اجتهد غاية الجهد فى عدم تسليمه لما فيه من الدراهم فلم يمكنه ذلك ثم ألبسوه بدلا عنه قاووقا من جلد الغنم كان يلبسه رجل من المصابين مثلنا كان مأسورا عندهم ومات حزينا محصورا

وبعد أن ألبسوه هذا القاووق عينوه فى وظيفة المتوفى وهى سوق الابل حال ارسالها للمرعى فى الجبال حيث لم يتوهموا منه الهروب لسمنه وثقل جسمه أما أنا فلم يسمح لى بالانتقال وترك الخيام وكانت وظيفتى

يومئذ خض الاكياس الجلد الموضوع فيها اللبن لاخراج ما فيه من الزبدة

ولشهرة انتصار التجريدة أعد القائد وليمة شائقة لعموم المعسكر وأحضر قزانا كبيرا ملآنا من الارز المفلفل وعليه شاتان مشويتان ودعا الرجال من الخيام المحيطة به وبعض الذين حضروا الهجوم على قافلتنا واجتمعوا في خيمة واحدة وأما النساء فاجتمعن في خيمة أخرى وبعد ان قدموا الارز واللحم للرجال وشبعوا حملوه الى النساء فاكلن ما يكفيهن وأعطين الباقي لاولاد الرعاة فاكلوا ولم يتركوا غير العظام وفضلات الصحون فاحضروها لنأكلها مع الكلاب ولانتظاري هذه القسمة مهما كانت بكل اشتياق لعدم أكلي من وقت أسري الى الآن مكثت عليه بكل شهوة فرأتني احدى النساء اللواتي أخذتها الشفقة عليّ وأومأت لي فتوجهت نحوها فاخفتني خلف احدى الخيام وقدمت لي وعاء ملآنا من الارز وعليه قطعة من دهن الغنم كانت أعطته لها احدى زوجات القائد ورحمة لصبيتي أهدته اليّ وأمرتني بتشجيع نفسي ثم عادت لمحلها بسرعة بدون أن تنتظر لتشكراتي

هذا وقد مضى النهار على الرجال بالتدخين وسرد خطراتهم لبعضهم وعلى النساء بالغناء وضربهن على الطنبورة أما أنا وسيدي المسكين فمكثنا نتفكر ونتأمل في حالتنا الكئيبة ولكن علامات الالتفات التي حصلت لي الآن من تلك المرأة أهدأت روعي وأسكنت خاطري وأراقت فكري للشغل وعلمت من ذلك عدم اليأس كلية من تحسين مستقبل حالتي وما ذلك الا بدعاء والدي ووالدتي

هي المقادير تجري في أعنتها * فاصبر فليس لها صبر على حال
يومان يوم مقامات وأنديـة * ويوم سير الى الاعداء ونزال

ثم اجتهدت بلاطائل فى تطييب خاطر صاحبى الذى لم يفتر عن البكاء لحظة على ما لحقه من هذه المصيبة العظمى ومازلت أسكن عقله وأسهل عليه أمره بقولى ان المسلم الحقيقى ليس له ملجأ سوى كونه يسأل الله الرحمة ويلتجئ لكرمه وينتظر عفوه سبحانه وتعالى فى حال الحزن والمصيبة

تعزفكم لك من ساوة * تفرج عنك غليل الحزن
فموت النبى وقتل الوصى * وقتل الحسين وسم الحسن

فما كان منه الا وأجابنى بقوله مثلك الذى يقول (الله كريم الله كريم) لانك لم تفقد شيأ ولكن ها أنا نهبونى وضربونى وأصبحت لا أملك فتيلا ولا قطميرا ولا نقيرا ثم سكت ولم يتكلم وجميع أفكاره متحولة نحو خساراته واعدام أمواله ومكث يحسب ماضاع منه من الاموال والبضائع ولم يترك بارة مما خسره فى هذه الوقعة الا وأدرجها ضمن الحسبة مع اننا كنا أيسنا من الحياة ولم يحمد الله على نجاة نفسه ولم يعلم ان رزية المال خير من رزية العيال فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ثم أرسلوه ثانى يوم الى الجبال ومعه خمسون جملا للمرعى بعد ان أصدر اليه القائد التنبيهات والتهديدات المشددة بالمحاذرة والتحفظ عليها واذا ضاع منها جمل فثمنه يضاف على قيمة الفدية التى سيأخذها عليه فيما بعد فصعبت على حالته وكان وقتئذ شعره هائلا فأردت ان أحلق له لحيتى له وأجلسته على رحل جمل وأخذت جزءا من ينبوع بجانبى وأحضرت قطعة صابون ووضعتها داخل الماء وأخرجت أمواسى التى نجيت بها من نكبات المقدورات وحلقت له على رؤس الاشهاد فلما رأتنا الناس على هذه الحالة أحاطوا بنا يتفرجون على هذه الحرفة العجيبة التى اتضح لى منها فائدة نتيجتها المستقبلى حيث كنت أحلق لمن يريد من الامام لان من عادة العجم ترك جديلتين خلف كل أذن كهيئة الضفيرة

وأما الاتراك فيربون لهم شوشة فى منتصف الرأس فعند ذلك وصلت شهرتى للقائد فاحضرنى وأمرنى بحلق رأسه بلا توان فباشرت العمل وقد وجدت برأسه جملة علامات من ضربات السيوف وشعره به خشونة كشعر كلاب الغنم السالفة الذكر وقد تراأى لى انه متعود على قص شعره فقط وربما كان يقرطمه بالآلة التى كانوا يجزون بها غنمه حيث كانت أعظم لذة عنده بواسطة أحد حلاق فى بلدته فلما رأى ما رأى من حسن صنعتى وغريب حلاقتى استشعر من تحت يدى بالنعيم وأظهر لى بطلاقة وجهه ممنونية لاحساسه بخفة رأسه وقال لى كأنك حلقت طبقتين من تحت جلدى ومكافأة لى أقسم انه لا يقبل منى فدية مهما بلغت قيمتها وسكن خاطرى ولقبنى بمزينه الخصوصى وهنا أترك للقارئ النبيه التنصيص على ما حصل لى من المسرة والانتعاش لهذه الحالة ثم جثيت على ركبتى لتقديم تشكراتى لسيدى الجديد على حسن تعطفاته نحوى الا انى كنت أثناء ذلك أتدبر فى انتهاز فرصة للخلاص من مخالبهم وبالنسبة لتقربى للقائد ومحبته لى صرت أتدلل عليه شيأ فشيأ وأعامله بكلمتى وأمرى عليه مع غاية المحافظة على نفسى ومازلت على هذه الحالة مدة أيام وأنا أتدبر فى الطرق المستحسنة لهروبى وفكى من أسر العبودية الكريهة التى وقعت فيها انظر المأكابده من المشقة والعناء وان كنت مستريحا بالنسبة لغيرى

﴿الفصل الرابع﴾

(فى حذاقة الحاج بابا واحتياله فى خلاص دراهم سيده من أيدى اتركمان والطريقة فى حفظها)

ومن ضمن مقاصدى التى تراءت لى ان الواسطة فى اسعافى ومساعدتى

على الهروب لا تكون الا بتدبير طريقة بها يمكن الحصول على دراهم سيدى المخيطة فى حشو عمامته القديمة السابق حذفها فى احد أركان خيمة النساء وان الحصول عليها لا يكون الا بالمهارة التامة بشرط عدم شبهة أو تهمة خلافى هذا وقد شاع ذكرى واشتهر أمرى بين عموم الناس والعساكر المجاورة لنا وصرت محبوبا وفقط لم يبق لى حيلة للدخول على البانو وباقى النسوة الا التشكر اليهن وابداء اشارات الممنونية التى بها ظهر لى صلة المحبة والمودة منهن الا انه لا يمكننى التطرف نحوهن لعدم لزومى عندهن بأى صفة من الصفات وانما لما تعلمه الرجال والنساء ان حلاقى العجم لهم دراية تامة بالجراحة وذلك بخلاف ما يتقنونه من صناعة التكبيس والتدليك فى الحمامات خصوصا فى الفصادة وخلع الاسنان وتجبير العظام فلتعطفات الالهية والمنن الربانية ارادت البانو الفصد فى يوم من الايام فكان هذا غاية القصد وأرسلت وكيلها تستفهم منى عن مقدرتى فى اجراء هذه العملية فقلت فى سرى كيف لا يمكننى وهذه هى الفرصة التى أتوصل بها الى وقوفى على موضع الامانة وأخذها بأى حالة ثم أسرعت مجيبا (نعم) وقد كنت استعددت باحضار مشرط من أعظم الاسلحة أفصد به بمهارة عجيبة بغاية الدقة والاحتراس فلما أخرجت العدة من جيبى أتى رجل من كبار القبيلة يدعى انه منجم يعرف علم الفلك وحسب الطالع وقال ان النجوم السيارة التى يصلح فيها الفصد لا تكون الا فى الصباح فلما رأيت ذلك أكذوبة تركته فى اثناء حديثه ولم أصغ اليه ودخلت خيمة النساء فوجدت البانو جالسة على سجادة مفروشة على الارض تنتظرنى بلا صبر فلما تمثلت أمامها وسلمت عليها وجدتها امرأة لا تميل اليها الجوارح البشرية ولا تهيج منها الشهوات الذاتية سيما الشاب مثلى فى يانع شبوبيته وعلى كلا الحالات كنت أكره النظر اليها لسببين أولهما شدة

نحافة جسمها وقبح شكلها الذى لاتهواه النفس وثانيهما خوفى من زوجها أصلان سلطان وبذلك ما كان يمكننى التملق ولا الميل اليها وان كانت تظهر محبتها نحوى خوفا من أن يكون عاقبة هذا الامر تمليص آذانى واعدام حياتى مع انها كانت تنظر الى نظرة رضا وتراعى فى مزاجى كانى سيدها كما أن النساء اللواتى يحببنها كن يعظمننى ويلتفتن الى كل الالتفات وجميعهن يتمنين ان أجس نبطهن لا نظر أيتهن يلزمها الفصد وفى اثناء تجهيزى آلة الفصادة للبانو كنت أتطلع وأحول نظرى فى أركان الخيمة لعلى أقع على هذه الامانة التى أتمنى أخذها ولانتهاز الوقت الطويل للحصول على اتمام الفائدة بالنسبة لاغراضى فى هذه العملية خطر بفكرى اعادة تجربة نبطها مرة أخرى فأمسكت يدها وأنا أتأمل بشدة لنبطها وانما لغاياتى أريتها ان الدم معقد وفاسد ولا يصح اسالته على الارض بل يلزم جمعه فى وعاء لامتحانه عند الفضاء حيث رفع نظرى على موضع الامانة فكان نتيجة قصدى ضجيج النساء وصياحهن مع بعضهن ولكن البانو لم توافقهن بل عدلت عن رأيهن ووافقت على آرائى وذلك لما فيه من الصعوبة الكبرى بما انه يشق على التركمان تعرض أى اناء للاتلاف بواسطة استعماله بشئ ينشأ منه تلف الاناء بالكلية وعلى ذلك صرن يناقض بعضهن بعضا وينكرن وجود أوعية بطرفهن وكل ما يرونه يستخسرن رميه واتلافه ويظهرن معرته عندهن هذا وبينما أردد أفكارى بالمجاسرة لتوجهى ذلك المحل الذى فيه القاووق فاكان من البانو الا وافتكرت وعاء قديما من الجلد وأمرت احدى النساء بالبحث عنه فلما أحضرته ونظرته قلت لها انه لا ينفع لما فيه من المناور الموجودة فى قاعه وهممت نحو باب الخيمة ورفعته امامى للكشف عليه ولاتمام مرغوبى شققته بالسكين ومازلت كذلك حتى خرقته نحو سته خروق ثم أريتها

عدم نفعه وصاحت البانو على النساء أين القاووق القديم الذى كان يلبسه الامير المأسور فاجابتها الزوجة الثانية انه تعلق وأخذته لاحشى به رحل جلى فقالت لها بعنف شديد لا اله الا الله كيف يكون ملكك وتغنينه عنى وأنت تعلمين انى سيدة هذا الحرم وكبيرة عليكن فالبتة من احضاره فاجابتها الزوجة الثانية مغضبة وقالت لا أحضره

فهاجت النساء لذلك وعلا الصياح والضجيج وعندها خشيت ان يأتى هذا الخبر لمسامع أصلان سلطان فيفصل المسئلة باستولائه على الشئ الواقع عليه المشاجرة من أيدى المتشاجرتين

انما من حسن بختى وسعدى تداخل المنجم فى حل هذه المسئلة وأكد على الزوجة الثانية مشددا انه اذا استمر النزاع على هذا المنوال فحينئذ يهرب الدم الى رأس البانو فيؤذيها فلما سمعت كلام المنجم انجبرت على ابطال دعواها وسلمت لها القاووق فحمدت الله على ما أنعم على به من التسهيلات وعلى ذلك أجريت الاستعدادات اللازمة لفصدها فلما ان نظرت المشرط والوعاء من تحتها لنزول الدم فيه والاعين المتطلعة اليها من كل جانب المتشوقة لمشاهدة تلك العملية داخلها الفزع والخوف ولم تسمح لى باتمامها فلخوفى من ضياع الثمرة المقصودة نظرت اليها بعين الشفقه والحلم وجسست نبطها وقلت ان امتناعها مضر بها وضرورى من فصدها والامتثال لما قدر عليها الان كل انسان لا يمكنه بعلم المانع لقضاء المقدر عليه من ابتداء خلقته فعند ذلك لم تحاور بنى بشئ بل اتفق آراؤهن جميعهن انها اذا عارضت الاحكام الالهية فتكون بذلك ارتكبت الخطيئة والاولى امتثالها لقضاء الرحمن فمدت ذراعها عريانا وثبتت بقوة ظاهرية لضرب مشرطى فلما انقطع سيلان الدم وانتهت العملية أمرت بنقل الوعاء الذى به الدم الى محل بعيد عن المعسكر بمسافة قليلة وان لا يسمح لاحد قط ان

يصل اليه خلافي حتى أعلم اصابة المريض من خير أو شر الناتج من الفصد بمدسيلانه وامتحانه بمفردي

ثم اني انتظرت حتى أظلم الليل ونامت جميع الناس وخرجت خارج المعسكر ومزقت بطانة القاووق وأخذت الخمسين دينارا بفرح وسرور لامزيد عليه وأخفيتها في حفرة قريبة ثم حضرت الى حفرة أخرى أيضا فأخفيت فيها القاووق وعدت لمكاني فلما أصبح الصباح توجهت للبانو مظهرا الاسف وأخبرتها انني لما خرجت بالامس خشيت حصول شئ منها يضر بالدم فدفنته مع القاووق في الارض فاقتنعت بكلامي وحصل لها الانبساط ومكافأة لي على خدمتي أرسلت لي صحنا صناعة يدها وعليه قوزي محشي بالارز والزبيب وبجانبه وعاء مملوء لبنا حامضا ومشرر عليه الملح ثم ويلزمني الافرار بما تراأى بفكري وقر عليه رأيي وهوانني لما استحوزت على الخمسين دينارا خطر ببالي سيدي القديم الذليل الذي نعصت عليه معيشته بالمقت في الجبال يرعى الجمال حال كوني في درجة مناسبة من اللذة وعزمت في نفسي وأنا متقلقل النية على رد هذا المبلغ اليه ومازلت أحاول الافكار وأتباحث رويدا في الآراء المرار وأقول لولا شطارتي وحذاقتي لضاعت الدراهم كلية فمن ذا الذي حينئذ له الحق في أخذها خلافي ولو فرضنا واستحوذ عليها صاحبها بالثاني فلا تفيده فائدة بالنظر لوظيفته التي هو بها الآن لان واحدا بين تسعة وتسعين شخصا لا يمكنه اعمال شئ ومن حيث انه لو أخذهم لابد من سلبهم منه بواسطة الناس الذين بصحبته فالاولى ابقاؤهم معي الآن بما انه موعود بفقدهم وأنا موعود بالاستيلاء عليهم وعلى ذلك انفصلت صعوبة هذه المسئلة ورأيت في نفسي بهذه الادلة كأني المالك الاصلي للخمسين دينارا ولا يجوز لاحد في أي شريعة كانت ان يأخذها مني

و بعد انتهائى من هذه الورطة اجتهدت فى ارسال نصف القوزى المشوى اليه الذى أهدى لى ليسد به رمقه ويرد جوعه فمادبت أحد الرعاة وكان ذاهبا للجبل وأخبرته بتفاصيل المسئلة وعاهدته بتوصيله اليه فوعدنى بعد أن أقسم لى انه لا يمسه فى الطريق بل يوصله له باكمله فمع هذا كله مازلت أشك فى كلامه ولكن بعد نهومذاكرة الدنانير السابقة قلت لا يهدأ خاطرى مالم يشاركنى رفيق التعيس فى اقتسام لذاتى وعلى ذلك سلمت للراعى نصف القوزى لتوصيله اليه ولكن يا ألف حسرة وخسارة ماحسبته وجدته فانه لم يستغرق هذا الشق لجهة النهر الذى فى حدود المعسكر الا ورأيته يقطع فلذات من اللحم ويضعها فى فمه ولا أشك فى كونه أكله وخلصه قبل وصوله بل ونظف على عظامه من قبل أن يحتفى عن بصرى وترا أى لى عدم النجاح فى اقتفاء أثره لطول المسافة التى قطعها ولم يفرج عن نفسى الا كونى التقطت حجرا من الارض ونشنت على رأسه وحذفته فلم يصل اليه ولا يتم مقصودى حتى أشفى غليلى فتركته وأنا كاظم الغيظ

﴿الفصل الخامس﴾

(صيرورة الحاج بابا الصاروخا ميا لنفسه واغارته على وطنه)

أقول قد مضى الآن نحو السنة وأنا فى أيدى التركمان وتحصلت فى أثنائها على محبة سيدى وميله الى حتى آل أمره الى أن يشاورنى فى جميع مصالحه الخارجية بل وفى داخليته وكنت أنا الآخر ملازما ومصادقا له ومطيعا لجميع أوامره فلما رأى صداقتى وحسن سيرى وعلم بذلك علم اليقين انه يركن الى فى مهمات الامور المتعلقة بشؤنه مالت طبيعته الى أن يسمح لى بمرافقته فى سياحته على قول التنزه الى بلاد العجم بقصد السلب فحال ما بلغنى هذا الخبر كدت أطير فرحا حيث بهذا الاذن فرصة عظيمة لهروبى منه بغاية

الراحة فانى طالما ترددت وكررت عليه بان يأذن لى فما كان يقبل منى حتى سمح الزمان وآن الاوان بمنتهى بغيتى ووصولى معززا البلدتى على أنه ما كان يسمح الى هذه الساعة بالفسحة خلف المعسكر ولا بالتوجه خلف المراعى المحيطة به خوفا من الفرار مع انه ما كان يمكننى ذلك لانى كنت عادة أجهل الطرق التى داخل الصحراء العظيمة المالحة الفاصلة بيننا وبين بلاد العجم وعلمت أنى لو اجتهدت فى الفرار لا يفيدنى شيأ لجهلى وعدم استدراجى على هذه المسالك حيث اتضح ان كثيرا من الناس قبلى هربوا وأغلبهم هلكوا والبعض عادوا والسادات فعاملوهم بشدة وعنف عن قبل وعلى ذلك ابتهجت سرورا العلمى انى ملكت الفرصة لمشاهدة الصحراء التى سنمر منها وعزمت فى نفسى ان لم أتمكن من الهروب أثناء هذه التجريدة فما يمنعنى شئ عند العودة عن الفرار بالنسبة لوقوفى على الطريق فى الرحيل

ولكون أغلب سياحات التركمان كانت فى فصل الربيع لوجود المزارع والمراعى فى الاراضى العالية لخيولها والعلال الناضجة فى الاراضى السهلة والداعى الاكبر أيضا تحققهم مقابلة القوافل فى هذا الفصل حتى يشنوا عليها الغارة بالنهب والسلب حال سفرهم فلقرب هذا الفصل دعا ذات يوم أصلان رؤساء قبيلته ورؤساء العشرات والمئات وكل من كان مشهورا بالشجاعة فى النهب وأبان لهم التفاصيل التى يقصد بها السياحة الى وسط بلاد العجم اذ كان قصدهم الوصول الى نفس أصبهان والدخول ليلا بعد نيام أهلها وهجوع من فيها فيسلبون الخان الذى يلتجئ اليه أعنى تجار المدينة وكان سيدى المذكور هو القائد لنا فى هذه الصحراء العظيمة لان المامه وخبرته ومعرفته بالطرق كانت أحسن من أى انسان معاصر له ثم قال للمجلس حال انعقاده انه بالنظر لعدم معلوميه أحد منكم بشوارع وأسواق مدينة أصبهان خلاف الحاج بابا فقد عينته دليلا لنا فى الطريق عند دخولنا المدينة

فلما سمعوا كلامه عارضت جملة ناس هذا الرأى وقالت أيها القائد كيف يكون ذلك فان من عدم التبصر الاعتماد على أجنبى حالة كونه وطنيا أى من نفس المدينة المراد سلبها وبوده الفرار فى هذه الدقيقة من هنا فكيف اذا وجد من يوصله الى بلدته وهو آمن مطمئن على نفسه فاتفقت الآراء أخيرا بعد حصول جملة مجادلات بانه لا بأس بان أكون الدليل لهم فى اصبهان بشرط أن يحتاط بى رجلان حتى اذا ترا أى لهما منى علامات الخيانة فبوقتها يقتلانى فى نفس البقعة

ولما انفض المجلس على ذلك أخذت التركمان فى استعداد خيولها وقد جهزت لى حصانا من أعظم الخيول المشهورة التى خرقت بندبرة السبق دفعتين وتهيأت على شكل التركمان حيث لبست على رأسى طربوشا كبيرا من جلد الغنم وتسلحت بحسام وقوس ونشاب وحربة ثقيلة برأس ترفع وتوضع عليها عند اللزوم وكان مربوطا خلفى على ظهر الحصان كيس حنطة وحبال لعقل الحصان عند الوقوف وقرص من الخبز لطعامى الخصوصى كانوا يخبزونه على ألواح صاج وتراه بعد الخبز فى سمن ورق الكرونة ومعى أيضا ستة بيضات آكلها عند الضرورة وشدة الجوع حال حصول مشقات أو مناوشات لا يمكن استعمال الخبز فيها وقد عودت نفسى على التخشن والتقشف من وقت ما أسرت الى هذه المدة وأنومى على الارض وأى شئ أجده أجعله وسادة تحت رأسى وبذا فوجود فراش للنوم وعدم وجوده مستويان عندى وكانت رفقائى تشابهنى فى القوة والتخشن ومن الجائز انه كان يعكس فى حالة تعب أجسامنا الى آخر درجة أن نكون اكفاء لمقاومة أى أمة فى الدنيا

وأول شئ احترست عليه هو أخذ الخمسين دينارا من الحفرة وربطها جيدا فى حزامى ثم وعدت سيدى الاول الذى فنى جسمه وتغير شكله من شدة

الحزن والغيظ انه لو أمكنتنى الفرصة أبذل مجهودى بان أوصى أصحابه باطلاق سبيله فلما سمع كلامى تأوه وقال لافكاكلى من هذا الدل الى الممات ولا أحد يسأل عنى اما من جهة ابنى فأودما عليه هلاكى واستحوازه على أمتعتى وكذلك زوجتى أحب ما عليها أن تتزوج زوجا آخر وبذلك خاب أملى لحين انقضاء أجلى ولا يلزمنى الا حاجة واحدة وهى أن تعمل معروفا وتسأل لى عن أثمان جلود الشياه فى اسلامبول فتاسفت على حالته وعدم حسن مقالته وتذكرت مصيبة من تلاهى فى خزانة ماله ولم يتفكر فى أمر أولاده عند شبوب النار بمكانه وقد قيل فى حقه خطابا له

قبحت يا هذا ولقيت الردى * وجزيت بالخزلان والخسران
شببت بيتك ليلة نار لها * سعر حكى لون النجيع القانى
يا ويح قلبك والنواظر ان ترى * ولديك فى النيران يحترقان
لما سعيت الى الخزينة مسرعا * للدرهم الفانى كما اللهفان
وتركت أمهما تدق بصدرها * وتفيض منها العين بالهملان
فجزيت من قبح الفعال جهنما * وحباهما بالحور والولدان
وكفالك أن قد صرت أقسى واحد * أمثولة فى الخان والبلدان

فتركته وأنا أحاول الافكار عن الخمسين دينارا وأردد فى ضميرى هل ينبغى ارجاعها اليه أو الاحسن حفظها عندى ولو تكون برسمه لانه لو أمكننى الهروب يلزمنى قليل من الدراهم أستعين بها فى الطريق وباى طريقة لا يمكن سيدى الخلاص من الاسر الابعد اخلى

هذا ومازلت أقلب الافكار وأجوب موارد التذكار حتى قررأى أخيرا بابقائها فى منطقتى وبعد ان أخبر المنجم عن أحسن ساعة يستحب الرحيل فيها قمنا فى أوائل الليل وكانت عصبتنا تشتمل على القائد العمومى لهذه التجريده وهو أصلان سلطان وعشرين فارسا وأنا من ضمنهم وكانت رفقاؤنا من

أعظم فرسان العساكر المجاورة لنا وجميعهم فوارس كاملوا العدد وراكبون على أحسن الخيول المشهورة فى السرعة وجودة الاصل المجلوبة من الخيول المشهورة داخلية آسيا وعندما ركبنا اعتقدت أن هيئتنا كهيئة طائفة السفهاء والاشرار وتصورت أننا ملكنا الصحراء لضجة الخيل فيها امامن جهتى فكنت أشعر من نفسى أن الطبيعة البشرية لا تخيل لى بان أكون فارسا ومع ذلك رأيت أن الاحسن ثباتى وتحفظى على هيئة الشجاعة والفروسية ظاهرا مادمت بهذه الحالة مثل الاشقيا الذين برفقتى فسلكت على هذا الاسلوب مظهرا القوة والبطش كى يعتقد سيدى ورفقائى انى فارس رستام (وهو اله الشجاعة والقوة قديما عند العجم كما هو مذكور فى تاريخهم وفى شاهنامة العجم) و يعتقدوا أيضا انهم استحوذوا على فارس صرغام مثلى مع انى فى حقيقة الامر كان حاصلا لى انزعاج و وجل شديد خصوصا كنت أتوقى اليوم الذى سيجرى تجربتى فيه كانما عنانى أبو العلاء بقوله

أسد على وفى الحروب نعامة * فتخاء تنفر من صفير الصافر

وكنت أتعجب كل العجب من فطانة ومهارة القائد الذى كان يقودنا فى المزارع والغابات المهولة المغطية الجبال التى على حدود كبشالك أمار رؤية المسالك الخطرة ومطالع الجبال الشامخة لسواح حديث السن مثلى فكان يرتعد منها جسمى و يضعف عزمى ولكن رفقائى لا يبالون بمثل هذا الخطر بل كانت عندهم سهلة العبور لا يشعرون بتعب ولا فتور لجودة خيلهم التى ربوها بحسب سيرهم وكنا لما نصعد فوق الجبل وندخل فى سهول بلاد العجم الواسعة التى اشتهر سيدى بمعرفتها وبمسالك قفارها وأوديتها فبمجرد ما يظهر له أى علم كان يعرفه فى الحال ما كأنه الابحارى افرنكى خبير بمسافة الجهات التى ينظرها من بعد فى البحر والاعجب من ذلك

ما اشتهر به من الفطانة والفراسة التي يستخرجها من العلامات وخطوات الحيوانات التي يجدها في الصحراء فمنها يخبر عن جنس السواحين وعن بلادهم ومن أي الجهات آتين ولاي الجهات متوجهين وهل هم أعداء أو أحباء أو كانوا محملين أو فاضيين ومقدار عددهم التقريبي بكل دقة

ثم استمرينا بغاية التيقظ في المسير وكنا نستريح نهارا في الجهات المسكونة ونسير ليلا أما العلائق والمؤنة فصار تجديدها قبل دخولنا الصحراء المالحة من آخر معسكر من القبائل الرحاله وبعدها أخذنا في الرحيل مسرعين بالخيل مما نعهده فيها من الجودة والشدة في هذه البيداء والصحراء القفراء بعد أن قطعنا مائة وعشرين فرسخا (الفرسخ ثلاثة أميال ونصف جغرافي) وجدنا أنفسنا في ضواحي أصبهان حيث قد اقترب أوان حصاد ثمرة التعب وحان وقت تجربتي فكان قلبي يسقط تارة ويتزعزع أخرى كلما أسمع حالة الهجوم التي اتفق عليها أصحابي ألا وهي أن ندخل المدينة من جهات خالية الحرس أعرفها جيدا وفي منتصف الليل نسلك طريقا مستقيما للخان الملوكي حيث كنا متحققين من وجود تجار كثيرين يجتمعون فيه في هذا الفصل ومعهم النقود الجاهزة للمسواق وقد اتفقنا على أخذ جميع النقود التي نجدها ويقبض كل منا على تاجر بشرط أن نفر الى رحالنا بغاية السرعة قبل حصول انزعاج وصياح في المدينة فلما سمعت ذلك رأيت في نفسي أن هذه المسئلة قريبة الخطر ويحتمل عدم النجاح ونرجع بالخيبة والوبال فكان من رأيي عدم اجراء هذه العملية وعندها التفت الي سيدي وتفرس في وجهي وبالحال علم ما أنا عليه فقال لي ياحاجي افتح عينيك وارجع عما تفتكره وأنت تنجو أذنيك واعلم أن هذا ليس لعب أطفال حتى نوقعنا في المذلة ولعار فلتكن أيدينا واحدة وآراؤنا بعضها معضدة فاني أقسم لك بحياة النبي صلى الله عليه وسلم ان لم تسلك حسب الاتفاق ويظهر منك

اختلاس أو نفاق لابد أن أحرق أباك بعد أن أذيقك العذاب وأرميكما غذاء للكلاب فقد فزنا منها سابقا بالغنائم والاموال فكيف لا ننجو الآن ونعود بالخسران

ثم أمرني بالركوب بجانبه وأمر شقيا أن يركب من الجانب الآخر وكلاهما انذارني بانه اذا حصل مني ميل أو أي حركة تدل على خيانتي فاتمر لحظة حتى يسقياني كأس الممات ويدرجاني ضمن الغزوات فقلت ياسيدي معاوطاعة سترى مايرضيك من القوة والشجاعة ومدحته قائلا

قل للبيوث الخادره * وأولى النصال الباتره
وذوى الرماح العاسلا * ت اذا هززن لغائره
اياكم والتركمان * هم الاسود الزائره
كم قد تجندل منهم * بطل شجاع فاقره
لما غدا مخاطرا * دارت عليه الدائره

ثم سرنا في مقدمة القوم ولوقوفي على مواقع أصبهان سلكت طريقا اخربا حولها ودخلنا في الشوارع المسكونة التي كانت في هذه الساعة من الناس خالية ومهجورة وبوصولنا لمحل الواقعة اختبأنا في احدى المنازل الخربة التي بجوارها ولم يتردد أحد جهتها الا نادرا وتزلنا عن ظهور خيولنا ودققنا أوتادا في الارض وربطنا فيها الخيل بحبال الكعب وتركنا نفرين من رجالنا يحرسونها وبكل تحفظ عينا نقطة الاجتماع في معارة منفردة تبعد عن أصبهان نحو خمسة فراسخ وانها تكون محل التقهقر بحسب مقتضيات الاحوال فتوجهنا جميعا على الاقدام بدون صياح ولا كلام متجنبين الشوارع والاسواق التي أعلم أن فيها نقطا من العساكر المستحفظة وما زلنا ندخل من حارة الى أخرى حتى وصلنا لبوابة الخان وهي الجهة التي أعرفها نقطة نقطة بدون أن أراها حيث بجانبها دكان والدي فارقفت.

صاحبي بعيدا عنها وأخذت حجرا وطرقت على بابها العلمي انه مقفول بالكالون
وناديت البواب باسمه قائلا يا علي محمد (افتح افتح) لان القافلة حضرت
فقال وهو بين النوم واليقظة بدون أن يبدي أدنى حركة للفتح أي قافلة
فاجبته هذه القافلة الحاضرة من بغداد فقال كيف ذلك وهذه القافلة قد
حضرت من بغداد أمس هل تضحك على ذقني فلما لم أجد له حيلة على الفتح
وقد أوقعت نفسي في الشرك انجبرت أن أخاطبه باسمي وأجبته قائلا ماهذا
ان قولي لحقيقي وهذه قافلة حضرت مع الحاج بابا كوبلي حسن بن المزين
الذي سافر مع عثمان أغا التاجر البغدادي وقد أتيت اليك في هذه الساعة
لاخبرك بذلك وآخذ البشارة منك فاجاب ياهذا هل هو الحاجي الذي كان
يحلق لي جيدا وترك محله خاليا من مدة مديدة فان كان هو فاهلا وسهلا
بشرك الله بالخير يابني تأن حتى أفتح لك الباب يا أعز الاحباب ثم قام يفتح
الكالون ويرفع التراييس وكانت وقتئذ تتقدم الجماعة نحو الباب مع الرئيس
فاكتشفنا أثناء دوران المفتاح في الكالون من الخروق انه رجل هرم
قصير وبيده فانوس حديد نوره زائد فتحققنا منه أن المحل غاص بالتجار
الكثيرين والامتعة المثمنة وبحال فتح الباب قبض أحدنا على البواب
وهدده بالسكوت وهجمنا جميعا دفعة واحدة وابتدأنا في السلب والنهب
ولاتقان رفقائي كيفيات الهجوم علموا جميع محلات النهب وبوقتها
استحوزوا على جميع الذهب والفضة التي وجدت

وكان أول عزمهم أن يأسروا رجلين أو ثلاثة من أغنى التجار الذين فديتهم
تكون ينبوعا لهم في جلب المال أحسن مما يغتنمونه حتى انهم قبل أن ينتشر
ويعلو الصياح ويعم الانزعاج قبضوا على ثلاثة رجال كانوا ناعمين على
أنظف المراتب وعليهم أغطية من أحسن الشيلان وتحت رؤسهم
وسادات مطرزة بالديباج وبذا ظنوا أنهم يتحصلون على مبلغ جسيم منهم

فارقتهم

فاوثقوهم كالفاروربطوا أيديهم وأرجلهم على حسب عادتهم وحملوهم بالقوة لمحل وجود خيلهم وأركبوهم خلف ثلاثة منهم وتوجهوا بهم الى نقطة الرجعة حتى غابوا عن محل الواقعة

ولما وصلت بمحبات الخان وغالب المحلات المقيم بها اغنى التجار وموضع النقود دخلت احدى الاودة وهى الاودة التى كان مقيما فيها سيدى عثمان أغا سابقا وقبضت على صندوق صغير تعوّد التجار وضع دراهمهم فيه وخرجت به ولتمام سرورى وجدت داخله كيسا ثقيلا فكبيت بعضه فى جيبى وحملت الباقى على قدر امكانى وبالنسبة للظلام لم أتمكن من معرفة الدراهم من أى معدن كانت

ولما آن انتهاء شغلنا حصل الهيجان والانزعاج فى المدينة حتى ان أغلب الناس الذين كانوا موجودين بالخان مثل خدامين وسياس وعربجية ومكارين عند ما داخلهم الرعب هرعوا جميعا الى السطوح وحضر السكان المجاورون له طوائف على صياحهم ولم يعلموا حقيقة المسئلة تماما ثم أتى حاكم المستحفظين والضباط والعساكر وطلعوا فوق السطوح ولم يزيدوهم الا صياحا بقولهم (اضرب امسك اقتل) بدون أن يحصل أدنى شئ حقيقى لضبط العدو وصاروا يضربون بنادقهم فكان الرصاص يطلع فى الهواء ماكأنهم الا ينظرون مسافة وصول النيشان لاى نقطة ولم يصب أحد منا وبالنسبة للظلام والهياج الكلى الحاصل اتفقنا على الفرار بما معنا بدون أن تحدث منا وقائع جنائية أو خلافها وفى أثناء هذه المشكلة كنت أحدث نفسى بالنجاة من هذه العصبة المشؤمة التى صرت معدودا منها بان أختبئ فى احدى الزوايا الى حين انصرافهم ولكن طرأ بفكرى انى اذا فعلت ذلك ونجست فهيئة ملبوسى تدل على أنى من ضمنهم ومن قبل ان أوضح لهم حالتى وأخبرهم عنى وعن والدى أسير غنيمة باردة

وتسفك الاهالى دمائى ولا يقبلون منى هناء ولا عزاء وهذا ما حسبته مرارا وان كانت دكان والدى التى قضيت فيها أيام الهناء والسرور مجاورة لذلك الخان وقلت اذا قبضوا علىك باليد ماذا تفعل وأول شئ تفكرت فيه هو ملاحظة أصلان سلطان الذى هددنى بالقتل ان لم أسلك الاسلوب المتفقين عليه وأوفى بانعهود السالفة بيننا فامتنعت عن هذا الامر وسلمت أمرى لله

ولاظهر شجاعتى وقوتى امام سيدى وما أنا فيه من القوة أسرعت بالقبض على رجل أعجمى يريد الهجوم علينا وطرحته على الارض وصحت عليه قائلا ان لم تخضع لنا وتكن أسيرا تحت يدنا وتتبعنا والا قتلتك فلما سمع ذلك ارتعد واستغاث وهو يقول اطلقنى بحق الامام الحسين وحياة أبيك وبحق لحية سيدنا عمر وأنا مستغيث بك فأعتقنى لوجه الله فلما سمعت صوته لم أشك فى كون هذا صوت والدى لامحالة وبواسطة ضوء القنديل تحققت من وجهه جيدا فاذا (هو هو) وكان حضر للتحفظ على دكانه من السرقة التى لا تحتوى الا على ستة فوط وصندوق أمواس وصابونة وسجادة لاغير وحال ما عرفته تركت لحيته من يدى التى كنت قابضا عليها بقوة وبالنظر لحالة الاحترام التى تعودنا عليها نحن الاعاجم لوالدينا كان يجب على تقبيل يده ووقوفى امامه بكل خضوع ولكن حرصا على حياتى التى كانت تحت الخطر اذا حصل منى تهاون استمريت على المشاجرة والمشاحنة معه

ولا بين ميلى وتشوقى نحو أصلان سلطان أظهرت أنى أسحنه ضربا وفى الواقع كان ضربى فى سرج بغلة كانت بجانبه وفى أثناء ذلك سمعت والدى يخاطب نفسه بقوله آه وا أسفاه وا مصيبتاه لو كان ولدى الحاج بابا هنا ما تحمل ما أكابده من هذه المشقات ولا ما قاسيه من اهوال الممات

فتأثرت

فتأثرت من أقواله ومايظهره نحوى من حسراته وهو لايعلم انى اناولده ومضغة كبده ولولم أرالموت أمامى لاعتنقته اعتناق المحب للمحبوب فكيف بالوالد الودود ولكنى اجتهدت فى خلاصه من مخالب التركمان وقلت لهم باللغة التركية لافائدة لنا من هذا الرجل فانه حلاق لايملك شيأ وفى الحال تركته بدون اظهار أسف أو تكلف وغبت عن محل الواقعة مع مابقى وركبنا خيولنا وخرجنا خارج المدينة مسرعين الى نقطة الرجعة

﴿الفصل السادس﴾

﴿فى الكلام على الثلاثة الاسراء الذين أخذهم التركمان والغنيمة التى اكتسبوها من الخان﴾

(قال الحاج بابا) فلما وصلنا لمحل الرجعة التى تواعدنا فيه بالمقابلة نزلنا من فوق خيولنا وقعدنا نستريح حتى نجتمع جميعا ويذهب عنا تعب تلك الليلة وكان احدنا سرق قوزيا حال ركوبنا فذبحناه وقطعناه قطعا صغيرة للشى ووضعناها على اسياخ وجمعنا يسيرا من القش على قدر ما أمكننا مز وجا بزبل البهائم وأوقدناه تحتها وبمجرد ماسخنت اختطفناها جميعا قبل أن تستوى وصرنا نبتلعها كالغيلان بكل توحش وشراهة وبعد انتهاء الاكل وتوزيع مابقى منه على الاسراء تداولنا على ان نبحث عن أصل وكيفية الاسراء وماهم عليه من المقدرة وكان الاول طويلا ورفيعا يبلغ من العمر نحو الخمسين سنة حاد النظر نحيف الوجه خفيف اللحية ولابسا لباسين من الحرير وشالا على كتفيه وكان الثانى رجلا قصير القامة ملفوف الجسم متوسط السن دموى الوجه ولابسا قباء غامقا مزررا على صدره ويرى على هيئته انه أحد قضاة الشريعة وكان الثالث سمين الجسم غزير الشعر بشع المنظر يرى عليه القوة واليأس وهو الرجل الذى اعتنينا فى تكتيفه

وابثاقه جيدا عن الآخرين بالنظر لما رأيناه منه من شدة المدافعة عن نفسه

فأحضرناهم أمامنا وسألناهم عن وظائفهم وحالة اقامتهم فتقدم الاول وهو الرجل الرفيع الذي يظهر عليه حالة الثروة كما ظهر للتركمان بناء على اخبار رئيسهم وبما انى كنت الوحيد في العصبة في معرفة اللغة الفارسية وقفت اترجم بينهما فسأله اصلان سلطان من أنت ومن تكون فانزعج الرجل وقال بصوت خفي أنا أنا ياسيدى أعرض لسيادتكم انى رجل فقير حقير لا اذكر في جانب خدامتكم فقال وما شغلك فأجاب انى رجل شاعر في خدمتكم ياسيدى وما بيدى شئ

فلما سمع احد التركمان المتوحشين لفظة (شاعر) صاح قائلا شاعر ما هذه اللفظة وما الفائدة منها فأجابه أصلان سلطان بحالة الغضب لا ينفع بشئ وان الشعراء أفقر الناس ويعيشون بما يتحيلون به على الغير من مدح وذم فمن الذي يدفع عنه الفدية ثم قال اصلان سلطان للشاعر اذا كنت فقيرا بهذه الحالة فكيف لبست هذه الملابس المثمنة وحضرت بها فراجعه الشاعر ان هذه الملابس من علامات الشرف أنعم بها علي أمير شيراز حيث كنت عملت قصيدة مدحته فيها فلما قدمتها اليه جازاني بهذا الانعام فلما سمع منه ذلك أمر بتجريده منها واعطائه ملبوسا من جلد الغنم وذهب بعيدا عنه وأحضر الرجل القصير وسأله الرئيس عن وظيفته فاجابه انى قاض فقير لا أملك النقير فقال كيف تدعى الفقر والمسكنة وتنام على أفخر المفروشات فيا ولد الكلب ان لم تصدقني بحالتك ورأيتك تكذب في مقالتك لاعزلن رأسك عن جثتك في هذه الدقيقة فاعترف بحالك من الغنى والثروة فان القضاة جميعهم أغنياء لانهم يبيعون أنفسهم لمن لهم السلطة عليهم حبا في جمع الدرهم والدينار فأجابه القاضي ياسيدى انى قاضي قرية

جلدون واتيت الى أصبهان حسب أمر محافظ المدينة لدفع أموال القرية التي أنا قاطن بها فاعترضه الرئيس وقال أين تلك الدراهم التي أحضرتها فقال القاضي ياسيدي قد أتيت لاعرض حالتي للمحافظ وأخبره ان الجراد أتلف محصولات السنة الماضية اتلافا كليا زيادة على قلة المياه لري الارض فقال واحد من العصبة ما يستحق هذا الرجل بعد هذا كله وما الفائدة منه فأجابه الرئيس ان هذا الرجل ذو قيمة عظيمة اذا كانت الفلاحون ترغب عودته وان لم يرغبوه فلا يساوي دينارا وعلى ذلك تحفظوا عليه ربما أن تكون فائدته لنا أعظم مما نحصل عليه من أحد التجار حالا ثم أحضروا الرجل الثالث أمامه فسأله أصلان سلطان كالمعتاد عن صنعته فقال متبلدا أنا رجل فراش فعند ذلك صاحت العصبة جميعها وقالت انه يكذب حاشا أن يكون فراشا وهذا يستحيل فقال أحدهم كيف يكون فراشا وينام على فراش نظيف فاجاب ليس هو فراشي ولكنه لسيدي ونمت عليه لعدم وجوده تلك الليلة فصرخ الجميع بقولهم يكذب ليس بفراش ما هو الا تاجر وقالوا له ان لم تعترف بالصدق وتقر بانك تاجر لا بد من قتلك ومازالوا يلحون عليه وهو لا يتنازل عن كونه فراشا فلما لم يقر بانه تاجر تعصبوا عليه واتخنوه لكما بالكفوف والاقلام فلما زاد به الالم لم يسعه الا ان صاح وقال أنا تاجر لكي يتخلص من هذا العذاب ولكني حكمت في نفسي من هيئة هذا الرجل انه ليس بتاجر وانه فراش كما يدعى

ولما ثبت لاصحابي ما هو عليه وانهم لا يستفيدون منه أدنى فائدة وطلبت منهم خلاصه من أيديهم ففي الحال التفتوا نحوي واتحفوني بنحو الالف لعنة ووبخوني وهددوني قائلين اذا كنت تريد الميل والشفقة على أهل بلدك سيكون لك نصيب معهم وتعود للاسر ثانيا فالتزمت حينذاك بالسكوت والصبر وتنحيت عن هذا الامر وتركت الاشقياء وشأنهم ولما

ثبت لهم أن مشروعهم فى سرقة بنى آدم كان سيئ الحظ لم يسروا من اجرآتهم وندموا على أخذهم الاسراء واختلفت الآراء بينهم فيما يجرونه نحو الثلاثة الاسراء الذين كان اسرهم كعدمه فالبعض قال نبقى القاضى لاخذ الفدية عليه ونستعبد الفراش وقد ظهر من الجميع انهم متفقون على قتل الشاعر فصعب على أمره ولم أقدر اتمالك نفسى من بذل مجهودى فى خلاصه من يدهم لانه ترا أى لى من هيئته انه رجل من كبار القوم وعلى معارف عظيمة ولابد وأن يكون من ذوى الثروة وان كان يدعى الفقر ولما ظهر لى ان الحالة زادت فى الاشكال واقترب اعدام حياته قلت للقوم ما هذا الجنون الذى ترتكبون به الخطيئة أما تخافون الله فى قتله بغير ذنب اما تعلمون ان قتل هذا الرجل أقبح من قتل الاوزة التى فيها بيضة من ذهب وأما تعلمون أيضا ان الشعراء يكونون أغنياء جدا أغلب الاوقات وفى امكانهم استمرار ثروتهم طول المدى لان غناهم فى رؤسهم فاذا ادلوا ما فيها أصبحوا من ذوى الثروة أما تسمعون عن الملك الذى أعطى شاعرا مشهورا مثقالا من الذهب عن كل شطرة فى القصيدة التى مدحه بها ألم يكسه بعد ذلك مع سلطاننا الحالى ولربما فى يوم من الايام يكون شاعرا خصوصيا للملك فقال أحدهم اذا كانت الحالة هكذا فليقل لنا أبياتا ارتجالية واذا كان كل بيت لايساوى مثقالا فنقتله فصاحوا جميعا على الشاعر وقالوا له هيا أسرع عاجلا واسمعنا قصيدة هيا هيا وقد أظهروا له البشاشة والنجاة من العذاب وقالوا له ان لم تقل والا قطعنا لسانك ثم تركوه واتفق رأيهم أخيرا ان يتحفظوا على الثلاثة الاسراء بدون ان يسوهم بضرر وانه بعد ان نقتسم الغنيمة نرجع بالثانى الى سهول كبشاك فدعانا أصلان أمامه وكل واحد انجبر على ابراز ما سرقه فالبعض منهم جلب أكياسا من الذهب والبعض من الفضة ولم يقتصروا على ذلك بل

احضروا

أحضروا أيضا شبكات ملبسة بالذهب من أفخامها وأباريق من الفضة وأكراك سمور من ذوات القيمة وشيلانا وجملة أشياء أخرى مختلفة الاجناس صار احضارها أمامنا ولما أتى دوري أخرجت كيسي الملآن من التومان (كل تومان يساوي أربعة عشر شيلنا) وكان اثقل الاكياس التي احضرت وبها كنت مدحا زائدا عن جميع الاشقياء فعند ما رأوا الدراهم قالوا جميعا (ماشاء الله ماشاء الله) ياحاجي لقد صرت تركمانيا من الدوجة الاولى مع انه لا يمكن أحدا ان يفعل مثلك وخصوصا سيدي صاح يمدحني باعلى صوته قائلا ياحاجي لقد صرت مثل ابني فاقسم لك بحياتي ورأس والدي انك فعلت أفعال الشجعان الابطال وسأزوجك باحدى جواري وتعيش معنا وننصب لك خيمة خصوصية ونعطيك عشرين رأسا من الغنم ونعمل لك الافراح والليالي الملاح بعد ان أدعو فيها عموم المعسكر فلما سمعت هذا الكلام لم أعبأ به وصرفته في عميق الافكار لان من عزمي الهروب في أول فرصة أتمكن منها بل كان مطمح انظاري في هذا الوقت وغاية التفاتي هو في تقسيم الغنيمة لانظر ماينوبني حيث تأملت ان ينالني نصيب عظيم منها

ولكن من سوء بختي ومن ضمن مصائبي الكبرى لم يصبني منها شئ ومكثت بدون طائل أتوقع عليهم وأترجاهم المرار في اعطائي نصيبي فما كانوا يسمعون مني شيأ وما أسمع منهم الا قولهم لي أخيرا (ياحاجي بابا اذا كنت تتلفظ بكلمة مرة أخرى نعزل رأسك عن جسمك) فالتزمت السكوت خوفا على فقد حياتي وسلبت نفسي بالحسين ديارا تعلق وتكتمت امري وقلت في سري ياولد اصبر لعل الله يأتيك بالفرج القريب

هذا ما كان من أمري وأما الاشقياء فكثيرا يتنازعون ويتشاجرون على نوائبهم التي كادت أن تكون عاقبة منتهاها سفك دماء بعضهم بعضا ولولا ان

رجلا منهم قال انه موجود من ضمن الاسراء قاض فلنحضره ليقض بيننا ويقسم علينا ذلك بوجه العدالة ولا لزوم للمشاجرة فهو الفاصل بيننا فأحضروا القاضي المسكين بينهم وأجلسوه في وسطهم وصاروا يوزع السرقة لكل واحد ما يخصه بوجه العدل وكان من ضمنها دراهمه وأمتعته التي سلبوها منه وبعد ان فرغ من القسمة قام بدون أن يعطوه محصول القسمة عن كل مائة ما تستحقه كما هي العادة الجارية عند القضاة بل عاد للاسر كما كان في أول الامر وهو يهون على نفسه بقول القائل

لا تضيقن بالامور فقد تكـ ـشف غماؤها بغير احتيال
ربما تكره النفوس من الامـ ـر له فرجة كحل العقال

﴿الفصل السابع﴾

﴿في الكلام على ما أظهره الحاج بابا مما ألم به من المشقات وتاريخ الشيخ عسكر الشاعر﴾

ولما انتهت مسئلة القسمة ارتددنا راجعين من الطريق الذي حضرنا منه ولكن كانت التجريدة بطيئة الحركة ليست كالاول بالنسبة للاسراء فانهم كانوا تارة يسيرون على الاقدام واخرى يركبون

وقد سليت نفسي أول وقوع نظري على الشاعر من هيئته الظاهرية بما انكب عليه من المصائب ولكوني كنت أتروى في بعض الامور فخيل لي المحال وتصورت في فكري اني سأكون سببا في نجاة هذا الرجل العظيم من الضيق بما أجريه من التحيلات على اني لا اظهر أدنى ميل لجهته فاجتهدت في هذا المشروع ونجحت في تعيني محافظا عليه بدعوى اني أجبره على انشاء بعض أبيات شعرية وبالنسبة لكوننا كنا نتحدث مع بعضنا بلغتنا التي لا يعرفها أحد من العصبة فكنا نتكلم بما نريد بكل حرية

ولا خوف
فشرحت له حالتى وماجرى لى مع الاشقياء من أول الامر الى الانتهاء وأريته
انى عازم على الهروب منهم وحققت له انى سأبذل جهدى فيما يعود عليه
بالفائدة على قدر امكانى فلما سمع كلامى وصدق مقالى ظهر على وجهه فى
الحال علامات السرور وقابلنى بلسان شكور حيثما كان ينتظر منهم الا
سوء معاملته ولعله ماحصل بيننا من الصداقة والمحبة لم يتأخر عن اخبارى
بماجرى له وباحواله وكيفيته وبذلك تحقق لى ما كنت أتوهمه من انه رجل
من ذوى الثروة والمعارف عندما أخبرنى انه شاعر الديوان الملوكى ومتشرف
برتبة (أمير الشعراء) وانه كان حاضرا من طريق شيراز (حيث أرسله
الشاه فى بعض أشغال هنالك) الى طهران وفى نفس اليوم الذى وصل فيه
الى أصبهان لم يتم الا بوقوعه فى أيدى الترکمان هذا وبعد ان سردت له
ماحصل لى من المخاطرات وماقاسيته من الاهوال والمشقات فلكى أن
نتسلى على مصائبنا فى الصحراء القفراء سألته أن يشرح لى حاله من مبتداه
الى منتهاه فاجابنى عن سؤالى وقال مايأتى
(قال الشاعر) لقد ولدت فى مدينة (كرمان) واسمى عسكر ومكث والدى
زمنا طويلا حاكما على هذه المدينة فى زمن حكم الاغا محمد شاه وفى اثناء
ولايته دسوا الدسايس ضده وقامت أعداؤه على ساق وقدم وهاجوا
وماجوا فى القاء الفتن الفظيعة بقصد خلعه من محافظة المدينة فانتصر عليهم
بمعونة الله وفاز بالظفر على أعدائه ولم ينالوا الا الخيبة والوبال
وكانت عيناه أكثر تعرضا للخطر ولكن لما كان عليه من العدل والاستقامة
قد حفظهما الله سبحانه وتعالى ومن حسن سعده توفى بدون تعب على فراشه
فى حكم الشاه الحالى فسمح لى بوراثة مترو كاته البالغ قدرها عشرة آلاف
تومان وكنت فى صغرى مشهورا بالالتفات لدروسى حتى انه قبل بلوغى سن

الست عشرة سنة شاع أمرى وانتشر ذكرى بحسن خطى وقد حفظت كتاب الحافظ باكمله على ظهر قلبى واجتهدت من تلقاء نفسى فى فن الشعر وانشاء القصائد اللطيفة وقد قيل عنى بانى أحل الجفر وأفصل صعاب المشكلات وكنت من نفسى لا أجد مسئلة الا وأبحث فيها ولا علما الا وأغوص بحاره وقد أنشأت القصائد والابيات الغزلية فى العاشقين الشهيرين ليلى والمجنون ولم أسمع يوما صياح البلبل الا وعرضت شكواه للورد وانما أذهب لا أتأخر عن انشاء الاشعار والتغنى بها فى المحافل وقد تصادف ذات مرة ان الملك فى ذلك الوقت تجهز لمحاربة صادق خان اذ كان يدعى انه يستحق سرير الملك وكان الملك قاد الجيش بنفسه واستمر يحاربه حتى هزمه وانتصر عليه فلما بلغنى نصرته عملت قصيدة مدحت بها الملك ومن ضمن ماقلته فى وصف الحرب أن جعلت رستام (وهو اله الحرب) واقفا فوق ساحة القتال مظللا بالغمام فلما رأى رستام الملك متوسطا فى المعمعة يقوى الابطال ويحوم كالاسد الرئبال وبالاخطار غير مبال صاح مخاطبا لنفسه ان غيابى فى هذا الزمان هو تمام حظى لانى لو تواجدت على الارض ماسلمت من طعنات هذا الملك المفضال الذى أراه قد فاق عنى فى الحرب والنزال

(قال الشاعر) وقد نلت أيضا الشكر الزائد عند ماقلت ان صادق خان وعساكره ما كان يلزمهم التقلب والعصيان ضد ملكنا فمع ماحاق بهم من التزلزل والوبال والهوان ومر انكسال فقد أطاح الملك منهم الرؤس وسقاهم من الموت أمر الكؤس وعندها أومأت بيدى على عمود أمر جلالته باقامته من جاجم الاعداء فلما بلغ الملك كلامى وعجيب تشبيهاتى وحسن نظامى انسر خاطره وغمرنى بالانعام وأحسن علىّ باعظم شرف يناله الشاعر اذ أمر أن يحشى فمى بالذهب أمام جميع معيشته فى المجلس العالى وكان ذلك سببا فى

تقدمى

تقدمي ونجاحي وأمر بتعييني ضمن معيشة جلالته لانشاء الاشعار عند الفضاء فقدمت له هذه المدحة شكرا لما ناله من الشجاعة ونصرته على صادق خان

عجبا لفارس فرسنا وثباته * تتزلزل الاجبال من وثباته
في كفه رمح اذا ما هزها * خلع القلوب وتلك من روعاته
والقرن يحلف ان فاه لعظمه * غار فاين يكون من لهواته
يعلو كميتا لو تجاريه الصبا * شهدت بان البرق من خطواته
فتح المعاقل والحصون مذللا * ملكا تظاهر في ثياب عداته
يدعى بصادق خان فهو مضلل * نهج الرشاد يسير في جهلاته
لازال يفتك جاهدا في جيشه * حتى بنى الاعلام من هاماته
ملك يجود لمعتفيه بالندى * فتخال ان البحر بعض هباته
لازال معتليا على أعدائه * بالنصر والاسعاد في غزواته
متمتعا في ملكه متحصنا * يجني اللطائف من رياض جناته

ثم ولا اظهر ما أنا عليه من الغيرة والاجتهاد أعرضت للملك ان الفيردوزي الشهير الشاعر المتقدم أمر بان يحرر شاهنامه للشاه الذي كان في مدته وحيث ان مولانا الملك أحسن ملوك الفرس الذين تملكوا على العجم سابقا فاذا تحسن لدى مولاي بما أتى عنده شاعر يأمر في بتحرير شاهنشاهنامه (تاريخ ملك الملوك) لانتشار شهرة عدله وأحكامه في جميع المملكة فلما سمع الملك مني ذلك سر سرورا زائدا وأمرني بتحريرها بكل ممنونية

وكان يريد أحد أعدائي الذين في المجلس العالي وهو الخزندار الاعظم ان يحدث على ضريبة اثني عشر ألف تومان بدعوى ان الملك أصدر ارادته في ذلك مع عدم علم جلالته بهذه الارادة لدفع ما ضرب علي من الغرامة فحدث يوما من الايام اجتماع محفل عظيم وكان الناس يتذاكرون فيه

عما حصل من اكرام محمود شاه الغزناوى الى الفيردوزى الشاعر ومعافاته من الضريبة واحسانه عليه بمثقال من الذهب عن كل بيت شعر قاله فى الشاهنامة فلما سمعت مقالتهم امتلأت فرحا حيث وجدت لى وجها للتكلم فى هذا الشان وكنت أود ان الملك يبلغه كلامى الذى ابتدرت به قائلا فى وسط المحفل (ان معافاة جلالة ملكنا الحالى واحسانه مساويان لمحمود شاه لا بل أزيد وأعظم منه سماحا وكرما واحسانا لان محمود شاه عافى الفيردوزى لانه كان متوظفا بوظيفة أول شاعر فى بلاد العجم وأما أنا فبما أنا فيه من الفقر والاحتياج والخضوع والمذلة التى أنا واقف بها الآن أمام جلالته فقد عمرنى مولاى بسابق انعاماته العديدة) فبهتت الجمعية لكلامى واشتاقت للوقوف على ما تفضل به جلالته على من الاحسانات ومتى كان ذلك فاجبتهم ان أول أمر لما توفى والدى ترك لى ميراث عشرة آلاف تومان فأذن لى الملك العادل بوراثتها مع امكان جلالته حرمانى منها وأصبح هذا المبلغ ملك يدى وصار عندى زيادة عليها من وقت تشريفى بخدمة الشاه للآن اثنا عشر ألف تومان ورغبة الخزندار تغرمنى اثنى عشر ألف تومان فيكون الباقى عندى ما ورثته وبذلك أحرم مما جمعته مدة خدامتى مع ان الملك لم يأمر بهذه الضريبة ثم صحت باعلى صوتى داعيا للملك قائلا أدام الله مولانا الملك طول المدى ولا ينقص ظله سرمدا وأن يحفه بالنصر على العدا ويكفيه شر الحسود أبدا فبلغ جميع مافاتته من الشكر والادعية لجانب جلالة الملك ولم يمض الا أيام قليلة حتى أحسن على بخلعة الشرف السامى المحتوية على قباء من الديباج وشال لوضعه تحت السدرى وشال آخر لتغطية رأسى وكاكولة من الحرير مبطنة بالفرو الثمين وبعد ذلك أنعم على جلالته برتبة أمير الشعراء وسلمنى الفرمان العالى فاخذته ووضعته على رأسى ثلاثة أيام على حسب العادة الجارية

وانا

وأنا أستقبل المهنئين من أصحابي بغاية السرور وانشراح الصدور ووقار ذهني زيادة عما كنت عليه في أول الامر

ثم أنشأت قصيدة موافقة للمرام بل أزيد وذكرت فيها ما نالني من الانعام والالتفات الملوكي وأثنيت فيها على الملك كل الثناء على ما أولاني به من احساناته الغزيرة التي كانت للخزندار انتقاما عظيما لسوء معاملته اياي حتى انني بذلت في ذمه القريحة ووضعت فيها الالفاظ المبهجة الغير صريحة التي لا يمكنه أن يفهمها لما فيها من صعاب المفردات وعجائب التنويهات والتركيبات وأدخلت فيها ألفاظا عربية أوجبت عليه تعذر قراءتها بالكلية لاحتوائها على الازدراء بمقامه والتنديد عليه بكل احتقار لاني أغلقت المعنى وجعلتها مبهمة المبنى وبذا لم يتيسر لاحد أن يشرحها أو يرمي لها على باب يدخل منه اليها حتى كشفت بنفسي عنها الاستار وأصبحت كالشمس في رابعة النهار

ولم أقتصر على فن الشعر بل لي معرفة بعلم الماكينات وقدمت جملة من غريب اختراعاتي في المجلس الملوكي موجودة للآن وقد اخترعت آلة تحرك على الدوام ولا يلزمها الا بعض آلات صغيرة لدورانها الى الابد وصنعت ورقا مختلف الالوان واخترعت دواة جديدة عجيبة الشكل وكنت شارعا في تفصيل الملبوسات لولا ان جلالة الملك منعني وقال لي يا عسكرا كتف بشعرك فاذا لزم لي ملبوسات تجلبها تجاري من أوروبا فاجبته بالسمع والطاعة

ومن العادة الجارية ان عند حلول رأس كل سنة يأتي كل فرد من أتباع الملك بهدية الى جلالته على قدر امكانه فلما كان ذلك اليوم عملت على حسب العادة الجارية منكاشا للاسنان وجعلت معه بعض أشعار ووضعته في علبة لطيفة وقدمته له فلما نظرته كبار الديوان وكل من كان موجودا في مجلس هذا اليوم المبارك تعجبوا من حسن صناعته

وأمرهم الملك بتقبيل فى مكافأة لا تعابى ومن جملة ماقلته هذه الابيات

مذ أشبه البحر مليك لنا * وشار باه الموج مات الجبان
غرثنا ياه ومن فوقها * اللئة المرجان درحسان
أهديته المنكاش لما بدا * شبيه غواص بحر الجمان

فلما سمع الحاضرون هذا التشبيه أعجبهم وشكرنى كل واحد منهم وحيانى على تصورى النير و بلغنى ان الفيردوزى لايذكر بالنسبة لدرجتى وانه يعد جاهلا محضا بجانبى وكان ذلك واسطة لتمتعى بافضال جلالته العظيمة حتى انه من حبه لى وميله الشديد نحوازدياد ثروتى وشرفى عينى لحمل خلعة الشرف المعتاد ارسالها سنويا لنجله أمير اقليم فارس فلما توجهت الى شيرازقابلنى أهلها بغاية الاكرام والاحترام وتساقطت على الهدايا الثمينة من كل جانب فاضفتها على ما معى من الهدايا الاخرى التى أتحفت بها فى بعض البلدان أثناء الطريق و وجدتها تساوى مبلغا عظيما ففجأتنى حادثة أمس وأحرمتنى من هذا كله وها قد سرق منى جميع أمتعتى وأصبحت لا أملك شيأ كما ترانى وصرت أفقر وأذل واحد فى الدنيا فان لم تجتهد يا حاجى بابا وتتدبر فى طريقة لهروبى وخلاصى فانى أخاف على نفسى أن أموت أسيرا لانه وان كان الملك أحب ما عليه خلاصى لكن لا أظن انه يفدينى لكراهة الخزندار لى حيث نسبته للجهل أمام الصدر الاعظم وأريته انه مع فطانته هذه لا يعرف يدير ساعة ولا يعرف كيفية صناعتها ولذا أخشى انه لا يبالى بفقدى والدراهم التى كنت أفدى نفسى بها أخذتها الاشقياء ومن أين يتأتى لى الحصول حينئذ على مبلغ مثل هذا ولكن قضى الله على بالوقوع فى هذه المصيبة الكبرى والهلاك المبين فيلزمنى الصبر على القضاء والقدر وانى لا أعارض ما خط بالقلم انما غاية رجائى منك جهدك فى خلاصى ومادمت انك من المسلمين الكارهين لعمر والمحبين للامام على كرم الله وجهه فانا

مستغيث بك ومستجير أن تساعدني في نجاتي وتفريج كربي ليكون لك الفضل والثناء ومن الله أحسن جزاء

﴿الفصل الثامن﴾

﴿في هروب الحاج بابا من أيدي التركمان ومعنى الوقوع من التنجرة الى النار﴾

(قال الحاج بابا) ولما انتهى الشاعر من تاريخه أكدت له اني سأعمل كل الطرق والتحيلات وأبذل الجهد الجهيد في مساعدته للنجاة وأوصيته بالصبر والتأني بما أني لحد الآن لم يمكني التحيل بالحصول على اطلاق حريتي معهم وأريته ما أقاسيه من تحملي المشاق اذا سعيت في خلاصه ولو حصل ذلك بالفعل لكان مستحيلا لتيقظ أولبائنا مادمنا سائرين في مثل هذه الصحراء الواسعة المنكشفة من جميع جهاتها سيما وان خيولهم تعادل حصاني في السير وهم خبيرون بالارض عي ولهذه الاسباب كنت أعد هروبنا من قبيل الجنون اذ الواجب علينا التبصر في انتهاز الوقت الذي نتمكن فيه من الفرار وفي أثناء هذا الحديث وصلنا لحدود الصحراء المالحة واقتربنا للمرور على الطريق الطوالي المؤدي من طهران الى مشهد وقبل أن نصل (الى دجان) بنحو عشرين فرسخا أمرنا أصلان سلطان بالاستراحة مقدار يوم واختفائنا في جهة منحطة على حدود هذا الطريق بدون أن يرانا أحد وقال لعل أن يكون لنا نصيب وتسعفنا أيدي السعادة بمرور قافلة كما هو عزمه ان بمجرد مرور أحد القوافل يغير عليها وينهبها

وفي صبيحة اليوم الثاني أتى الجاسوس الذي كان منتظرا فوق تل بجوارنا مسرعا وأخبرانه نظر غبارا كالغمام يهب من جهة دجان ويضرب نحونا في الطريق المؤدي الى مدينة مشهد فلما سمعنا ذلك استعددنا في الحال وتركت

الركبان الامراء مقيدى الايادى والارجل فى الجهة التى استرحنا فيها وعزموا أن يرجعوا ويأخذوهم ثانيا بعد شن الغارة على تلك القافلة وسلب مافيها فسرنا نحوها بكل احتراس قاصدين سفك الدماء والنهب وتقدم أصلان سلطان فى مقدمة العصبة بقصد الاستكشاف ودعانى اليه وقال لى ياحاجى هاهى الفرصة التى بها تمتاز عن الغير وانك ستصاحبنى لاريك الاحتياطات التى علمتها سابقا لجميع العصبة وضرورى لك معرفتها جيدا كى يمكنك أن تسلك فى مثل هذا المشروع بمفردك فى فرصة مستقبلة غير هذه وقد أخذتك أيضا معى فى حالة ما أحتاج لترجمان بينى وبين الاسراء لندرة وجود أحد فى هذه القوافل يتكلم بلغتنا وباقترابنا اليها نتساوى مع الدليل ونسأله عن حالة القافلة فان لم يمكنا الاتحاد معه فنهجم عليها جميعا مرة واحدة

هذا ولما اقتربت نحونا السياحون انكشف لى ان حالة أصلان سلطان تغيرت وامتزج بالغضب وقال ياخوفى فان هذه ليست بقافلة لانى أرى من فيها يسيرون صفوفا منتظمة ولا أسمع صوت الاجراس كعادة القوافل وأرى الغبار منضما بعضه فى مكان واحد وهاهى حرابهم ظاهرة وان هذا لهو البلاء المبين وهاهو أمامهم خمسة خيالة فى المقدمة وماهم الا فرقة سوارى ليست فريسة فلا حاجة اليها

وفى الواقع بمجرد اقترابها منا وتحققها جيدا لم نجدها قافلة بل اتضح انه رجل من كبار الحكام سياح مثل محافظ اقليم على الاقل وحوله معيه من خيالة وخدم وحواشى وفى موكب عظيم يلوح عليه الهيئة والافتخار بحسب الاحوال والظروف فعندما رأيت ذلك طرت فرحا معتقدا انها فرصة عظيمة للهروب ولكن لو كنت أتمكن من التوجه جهتهم بدون ان يشك سيدى من جهتى بشئ ولو يأخذونى أسيرا فبوقتها أطمئن على نفسى وان آهانونى فلما ان

قرر أبي على تدبير هذه الخديعة ولكي أحقق ما حسبته فبناء عليه قلت لصاحبي لنتقدم قليلا جهتهم ووكزت حصاني للامام بدون اذنه ففي الحال تبعني لكي يوقفني ولكن بعد ان قطعنا مسافة الارض الصغيرة المرتفعة التي تجاه الجهة الراسين فيها كشفنا الركب وكنا على بعد رمية قوس أو أقل فلما نظرونا خرج منهم طليعة مركبة من خمسة أو ستة سواري من أحسن الخيالة الموجودة وأسرعوا الرماحة قاصدين جهتنا فلفتنا عنان خيلنا وكدنا نطير في الهواء وكان على قدر ما يمكن أصلان سلطان من سرعة السير كنت أنا بالضد في ابطاء الحركة حتى بهذه الحيلة هجموا علي وضبطوني وجردوني من حصاني وسلاحي وأمواسي وسلبوا مني الخمسين دينارا وجميع أدواتي في أقل من لمح البصر ومع ما كنت أقول لهم اني كنت قاصدا الحضور اليكم برضاي فما كانوا يلتفتون لاقوالي بل أخرجوا طيلساني من تحت القباء وربطوا يدي من خلف وصاروا يوكزوني بالحراب ويلكموني كلما أتأخر في المسير وأنا أستغيث فلا أغاث من شدة الالم حتى قاربت العدم فقلت لا حول ولا قوة الا بالله قد أوقعت نفسي بنفسي في البلاء

المستجير بعمرو عند كربته * كالمستجير من الرمضاء بالنار

وما زالوا يجرونني حتى أحضروني لرئيسهم وأوقفوني أمامه واحتاطت بي أتباعه وكنت أرى من الحالة التي تبديها حاشيته من الميل الشديد نحوه والخضوع والطاعة انه لابد وان يكون هذا من عائلة ملوكية وأكدت ذلك لمناسبة اللكمات والضربات التي تراكمت على جسمي ورأسي منهم يريدون بذلك القاء نفسي على الارض ولثمها أمام هذا الامير الشاه زاده والناس حولي من كل جانب فامر بالافراج عني وبمجرد ما شعرت بحلي واطلاق سبيلي من الوثاق رميت نفسي وقبضت على ذيل جبته وهو على ظهر حصانه وصحت قائلا له (يا بني شاه زاده) يعني أنا في حماية الامير ومستجير به فاني

نحوى أحد أتباعه وأراد قصاصى على هذه الجراءة فمنعه الامير لعدم خرق العادة ووعدنى بالحماية والاطمئنان وبعد أن أمر خدمه أن لا يمسونى بسوء طلب منى أن أقص عليه حكايتى وسبب حضورى ووقوفى أمامه بهذه الصفة فخررت ساجدا على ركبتى وقبلت الارض وشرحت له قصتى جميعها بغاية الايجاز على قدر امكانى ولاثبات ماقلته سألته انه يمكن سعادته ارسال خيالة للهجوم على حزب التركمان الذين مازالوا بالقرب منا وتخليص شاعر الملك وشخصين من الاعاجم أسراء تحت أيديهم وبذا يمكنهم اثبات ما أبديته بالحقيقة لسعادتكم فما أتممت كلامى الا والفرسان الذين كانوا خرجوا فى أثر أصلان سلطان عادوا بالذل والانكسار وهم يقسمون بالامام على ورأس الملك ان حزبا عظيما من التركمان يبلغ مقداره على الاقل ألف نفر أقوياء متجهزون للحمل علينا ويلزم الامير الاستعداد لمحاربتهم

فلما سمعت كلامهم طار عقلى وبدون طائل كررت عليهم مرارا أنهم لا يزيدون عن العشرين نفرا فلا يصدقنى أحد منهم بل عاملونى معاملة الجاسوس والكذاب وقالوا لى اذا حمل علينا التركمان فلا بد من قتلك فى هذا المكان وتوجهت طليعة منهم مسافة كبيرة للاستكشاف فى جميع الجهات عن العدو المنتظر وهم يعالجون علامات الخوف التى تمكنت فى قلوبهم بما اشتهر به اسم التركمان من القوة والشجاعة فى عموم داخلية العجم

أسود كفاح بأسهم فى رماحهم * كسم الافاعى فى أنابيبها يجرى

وقد أمرونى بالركوب على بغلة محملة عفشا نظر السلب حصانى وخلالى الوقت بالتفكر والتأمل فى عيشى المنكود وغمى المكمود ومقاصدى التعيسة وأصبحت صفر اليدين لا بارة فى كيسى ولا صديق يرثى لحالى ولم أر أمامى شيأ خلاف الجوع المهلك ولكونى لم أصل للآن لدرجة المسلمين الصالحين حتى كان يمكننى تسلية نفسى على القضاء والقدر والصبر على

المصائب فكنت أتنهد تنهدات عالية من جنونى الذى كان سببا جبريا لشفاوتى وذلى الآن وميلى الكلى لاهلى و وطنى تحكم بشدة على صدرى حال أسرى عند التركمان حتى وقعت فى هذا المكان ومن شدة كربى وما حل بى صحت عليهم بصوت عال العنهم قائلا لمن حولى كيف تدعون أنكم مسلمون وليس فيكم حاسية الكلاب ياخسرة وما أدراكم ما الكلاب فانكم أقل درجة من كلاب النصارى ياعدمى الشفقة لانكم أنتم والتركمان درجة واحدة

فلما لم أجد لكلامى هذا تأثيرا ولا يزيدهم الا ضحكا واستهزاء بى رأيت أن أستعمل معهم اللين فى الكلام وأترجاهم فى الرفق بى فاقسمت عليهم وقلت بحق الامام الحسين و بحق النبى عليه السلام وبحياة أولادكم لماذا لم ترقوا وترفقوا بحال الغريب وتعاملوه بالعنف ألم أكن مسلما مثلكم وعلى دينكم وما الذى حصل منى حتى يوجبنى أتحمل هذا الحزن الشديد وقد التجأت اليكم وأخذتكم أصحابا فكرهتمونى ودستونى تحت الاقدام وأسأتمونى اساءة العدو شعر

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة * فلقد علمت بان عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك الا محسن * فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
أدعوك ربى كما أمرت تضرعا * فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى اليك وسيلة الا الرجا * وجميل عفوك ثم انى مسلم

فلم يرق لشكواى ولا يسلينى على مصائبى أحد الا شيخ مكارى طاعن فى السن اسمه على قاتر أولع شيشته وناولها لى لاتدخن وقال لى يا ولدى كل أمر فى هذه الدنيا من الله سبحانه وتعالى ثم أشار بيده الى بغلته وقال اذا كان الله خلق هذا الحيوان أبيض فهل يمكننى أجعله أسود وها هو يوميا يأكل الحبوب وآخر يرعى الحشيش فهل لنا قدرة على مقاومة القضاء حاشا لا والله

فاشرب شيشتك الآن وروق فكرك وابسط نفسك واشكر الله على مصيبتك هذه فلربما كنت تقع فى أردأ منها فقد قال الحافظ فى كتابه (كل لحظة تمر عليك بالسرور وتتمتع فيها باللذة فعدها من المكسب لان الانسان يعجز عن معرفة الاحوال المستقبلة من فرح وحزن) فهون على المكارى حالتى وسهل كربتى ولما وجدنى متفقها فى كتاب الحافظ وخبيرا بما فيه من المواعظ وعلم منى عدم الاحتياج لبذل النصائح عاملنى باللطف والشفقة وأشركنى فى طعامه المسافة الباقية من السفر وأخبرنى ان الامير الذى وقعت فى يده هو خامس ولد الشاه الذى تولى أخيرا على محافظة اقليم خراسان والآن متوجه الى مدينة مشهد حيث فيها مركز ادارته والموكب الذى هو محاط به زائد عن العادة خشية من حالة حدود التركمان المفزعة وقيل انه صدر له الاوامر بالشروع فى المناوشات العنيفة مع هؤلاء القوم وفى عزمه ارسال عدة من رؤسهم الى مدينة طهران لرفعها امام بوابة السراية الملوكية عبرة لغيرهم فيجب عليك أن تحمد الله سبحانه وتعالى وتعد نفسك سعيدا لعدم عزل رأسك عن كتفيك ولو كانوا وجدوك جميل الصورة ضيق العينين قليل الشعر بدلا عن حالتك المخيفة التى أنت بها الآن لاعدموك الحياة وأعدوا رأسك من ضمن رؤس التركمان

ثم لما وصلنا الى الاستراحة ليلا فى خان نصفه متخرب كائن على حدود الصحراء عزمت ان اجتهد فى الحصول على رخصة لدخولى عند الامير واسعى فى استرداد الخمسين دينارا تعلق وحصانى وأسلحتى التى لا أخشى ولا أشك فى دعواى بانها ملكى فحدثتنى نفسى وتكلمت بصوت خفى وقلت ان الرجل الذى سلبها له الحق فيها زيادة عما استحق وعلى ذلك انتهزت الفرصة ودخلت أمامه وكان ذلك قبل صلاة المغرب فوجدته جالسا على مصطبة الخان وتحته سجادة وهو مضطجع على وسادة بقصد الراحة وقبل أن يلحقنى

الحراس و يضربونى صحت بصوت عال قائلا (عرضى دارم) أعنى التمس عرض مسئلة فعلى ذلك أمرنى بالتقرب جهته وطلب منى عرض ما أريده فقبلت الارض بين يديه وقلت أدام الله مولانا الامير الذى عم البلاد عدله الشهير ثم شرحت له حالى واشتكيت له من سوء معاملتى التى عاملنى بها اتباعه الذين قبضوا على أولا وحكيت له مسئلة سلب الخمسين دينارا ثم ترجيته فى اعادة حصانى وأسلحتى بالثانى فسأل من حوله عن أسماء الرجال الذين تشكيت منهم وأمر رئيس الركب باحضارهم فقال ما رأيتهم وكانوا شخصين عرفتهما وأكدت للامير انهما الشخصان بعينهما فصاح عليهما الامير وقال لهما يا أولاد الكلاب أين الدراهم التى سرقتماها من هذا الرجل فاسرعا منكرين عدم أخذهما شيأ فغضب الامير ونادى بالفراشين وأمر الضابط بضربهما على كفوف أرجلهما حتى يقروا بالخمسين دينارا فلما طرحوهما أرضا وعلقوا أرجلهما فى الهوا، وربطوهما جيدا فى العقدة وضربوهما لكما اعترفا بالدراهم وأخرجاها وسلمت بوقتها للامير فاخذها وعدها بالثانى ووضعها تحت الوسادة المضطجع عليها وخلص السارقين وقال لى بصوت عال انطلق لحال سبيلك فوقفت فاتحا فى مؤملا أنه يناولنى الدراهم فلما رآنى السر تشريفاتى على هذه الحالة مسك كتافى وأخرجنى فصحت (ودراهمى أين هى) فقال الامير ماذا يقول هذا الرجل اذا تكلم ثانيا فاضربه بالنعل فقلع السر تشريفاتى نعله الاخضر من رجله وضربنى على فمى بنعله المحدد وقال أتتكلم مع ابن الملك بهذه الالفاظ ألم تستحى فاذهب بسلام وافتح عينالك والا تقطع أذنالك وعلى هذا جرونى وشدونى بحالة العنف وطردونى للخارج فرجعت لصاحبى المكارى وقد قطعت اليأس من التكلم فتعجب مما حصل من الاهانة وقال لى ما الذى تنتظره يا ولدى بعد هذا كله أما كفالك أليس هو الأمير ألم تعلم اذا كان

مثله أو انسان خلافه ذو قوة وعزم و يمتلك شيأ أتظن انه يرده لاصحابه فاذا كانت احدى البغال تأخذ قبضة من الحشيش الاخضر بفمها و بعد ادخالها فى الداخل أيمكن اخراجها بالثانى فمثلها مثل الامير الذى يضرب صفحا على الدراهم التى عنده فاستعوض الله فيها ولا تعاند من اذا قال فعل وما أحسن ماقاله أبو النواس

باسائل الله فزت بالظفر * وبالنوال الهنى لا الكدر
فارغب الى الله لا الى بشر * منتقل فى البلى وفى الغير
ان الذى لا يخيب سائله * جوهره غير جوهر البشر
ياقلب مهلا وكن على حذر * فقد لعمرى أمرت بالحذر

﴿الفصل التاسع﴾

(فى احتراف الحاج بابا بالسقاية باسباب ماحصل له من الضيق والنكاية)

فلما وصلنا الى مدينة مشهد دخلها الامير فى احتفال كبير وسار بموكب حافل والعساكر مصطفة على الجانبين والعموم يتلألأ على وجوههم البشر والفرح بالاحترام الزائد وهو محاط بالجم الغفير حتى وصل لمقره معززا مكرما وأما أنا فصرت فريدا وحيدا فى مدينة غريبة بعيدا عن الوطن محروما من الخل والخدن لا أنيس يؤانسنى ولا آدمى يساعدنى ولا زوج أمواس يسلينى

ولما تفقدت مامعى من الامتعة و بحثت فيها وجدت خمسة تومان ذهبا كنت سرقتهم من الكيس الذى سلبته من الخان حال وجودى مع التركمان وأخفيتها بين بطانة قاووق ووجدت أيضا جبة صوف سمراء وقباء من جلد الغنم وقميصا وسروالين ومداسا ثقيلا ولما كنت برفقة المكارى كنت أقتات من جانبه من مرتبه الذى كان يأخذه يوميا أثناء سياحته بعيبة

الامير ولكن لما استغنى عنه الحال وعن بغاله لم أتعشم بانه يعولني فتفكرت بان أعود لسابق حرفتي الاصلية وهي الحلاقة ولكن قلت في نفسي من الذي يأمن على عنقه مني مادمت معدودا من جواسيس التركمان وغير ذلك رأيت انه يلزمني شراء عدة أمواس ودراهمي وأمتعتي لا تكفي لفتح دكان كاملة الادوات مع عدم عزمي على السياحة فخطر ببالي ما أوصاني به صاحبي المكاري العارف باحوال وكيفيات مدينة مشهد من اتخاذي حرفة السقاية وقال لي يابني أنت شاب قوي البنية حسن الصوت ويمكنك استجلاب قلوب الناس اليك بصيحتك المطربة وندائك الموزون سيما وانك خبير بنغمات الاصوات والتملق بالنشيد ومطابقة العبارات وتركيب الجمل ونثر المقالات التي تجذب العقول وتضحك بها على الذقون سيما ان الحجاج الذين يأتون الى مشهد لتأدية فروض الحج عند قبر الامام كثيرون والصدقات هي من الواجبات اللازمة عندهم لنجاة انفسهم من العذاب الاخروي فلذا يتصدقون على من يدعولهم بنيل الاجر والثواب العظيم وليكن بيعك وسقايتك في الماء باسم ومحبة محبوبنا وسيدنا الامام الاعظم ولا تطلب دراهم بل اسق الناس مجانا وتيقن أن الدراهم بذلك تعطى في كفك قبل انسكاب الماء وبعد أن يشرب زبونك قل له بصوت قوي عظيم (جعل الله شربتك بالهناء والسرور ممزوجة بالاحسان والغفران على ممر الدهور وجعل سيدنا الحسين شفيعا لك ولا أذاقك الله عطش امامك الحسين) وهكذا تقول ما يماثل هذه الالفاظ بنغمات عالية وانشادات مطربة حتى يسمعك كل انسان وبالاختصار فانك تخاطب أيضا المتعبدين الذين يأتون من مسافات بعيدة ويقطعون مئات من الفراسخ للتضرع والادعية بقضاء حوائجهم وتصادق لهم على قبول أدعيتهم فانهم يصدقونك ويعتقدون فيما تقوله لانى كنت سقاء في مشهد وتمرنت جيدا

فى هذه التجارة واكتسبت منها مبالغ وافرة حتى أمكننى شراء جملة بغال وأصحت منها رجلا كما ترانى

(قال الحاج بابا) فاتبعت نصيحة صاحبى وأبرزت النقود لشراء قربة جلد بحنفيسة نحاس لحملها على ظهرى وأبضاطا ستين لماعتين للشرب ولما اشتريت القربة ملأتها بالماء ونقعتها زمنا لازالة رائحة الجلد الكريهة ثم ملأتها ثانيا وحملتها وتوجهت الى مقام الامام وابتدأت فى اشغالى والمناداة التى استحسنتها هى (مياه مياه سبيل على مدد الامام سبيل ياعطشان سبيل) وكنت أنشد ذلك وأترنم به بكل قوتى حتى ينفطر قلبى وتنتفخ الرئتان وبالنسبة لكونى تمرنت مدة يومين قبل ذلك بواسطة المكارى وعلمنى الكيفية عدوت نفسى من أقدم السقائين المتدربين فى هذه الحرفة ولكن بمجرد ظهورى أوجب التفات عموم السقائين نحوى ومسؤليتى عن السبب الذى خولنى الحق بالدخول فى تعاطى حرفتهم ولما أظهرت نفسى عند الصهريج لملء المياه كانت تتشاجر معى السقاؤن حتى ان أحدهم اراد مرة الاجتهاد لطردى منه فلم يتمكن ولما رأوا انى ثابت العزم وقوتى قاومت فرقة من شجعانهم امتنعوا عنى واقتصروا على لعنى سرا لتسلطى عليهم وبذا أصبحت القائد لهم وقطعوا ألسنتهم عنى خشية من بطشى

(نعم) وان كان فى نفس الامر أن الطبيعة هى التى سيبت لى حرفة السقاية بلا اختيار ولكن من الالطاف الالهية اننى حالما كنت أملأ قربتى ولو من صهريج معكر وانادى وأمجد وانخم فى وصفى للماء فكان كل من يسمعنى يظن انها مجلوبة من بئر زمزم المقدسة أو ملئت من أحد الانهر الممتدة من الجنة ولا يتصور بالعقل كيفية تصريفها بامراع وسهولة ولا مقدار الدراهم التى أخذتها نظير السقاية مجانا

وكنت

وكنت أترقب دواما حضور قوافل الحجاج الذين بمجرد وصولهم وقبل نزولهم من فوق بغالهم وهم مغبرون من السفر وفرحون لوصولهم بالسلامة ونجاتهم من أيدى التركمان اجتهدت أسقيهم مياه عذبة واذكرهم ان ذلك من الواجبات الدينية علينا بحال وصولهم لمدينة مشهد واهنيهم بالسلامة حتى بذلك كانوا يغمرونى بالاحسانات العميمة بدون تكلف وهم مسرورون بنجاتهم ووصولهم سالمين وكان يندر عدم التفاتهم لارشاداتى ونصائحى اليهم

ثم ولما اقترب يوم تذكار مقتل سيدنا الحسين رضى الله عنه الذى يعتبرونه فى عموم العجم انه يوم مقدس وان اقامته من الشعائر الدينية عزمت بان انظم نفسى ضمن السقائين فى سلك الموكب الجارى اشهاره سنويا بهيئة الواقعة التى حصلت فى ذلك اليوم وهذا الموكب بما احتوى عليه من تصوير الحادثة المشهورة التى قتل فيها الامام رضى الله عنه كان يمر من امام الامير فى ميدان المدينة فرجوت اكتسابى الشهرة والمنفعة العظيمة حيث أظهرت قوتى علنا للجمهور بان حملت قربة كبيرة جدا على ظهرى وبينت لهم ما أنا عليه من السعى والاجتهاد

وكان لى عذول اجتهد فى تدبير كيدة ضدى لما رآه من القبول الزائد نحوى فى العيد الماضى وأراد افتراسى ولكن بالنسبة لعظم قربتى وما فيها من المياه التى لا يقدر على حملها أشد السقائين فلم يتمكن من التسلط علىّ ولا أمكنه المنازعة فى رئاستى وقد أخبرنى من اثق به ان هذا الخصم مترقب حركة بها يتمكن من اضرارى للغيرة المتلبسة به وأوصانى بالحذر منه فلما كان اليوم المذكور وسار الموكب داخل المدينة والازدحام حافل جدا وكان الامير جالسا فى أودة على وجهة سلاملك السراية وأنا عريان ولم يكن على جسمى خلاف السدرى والدم يجرى من سيقانى وأنا سائر على مهلى

بالنسبة لثقل قربتي الهائلة فلما وصلت للشباك الجالس فيه الامير جذبت
التفاته نحوي بصياحي المطرب ودعائي اليه بدوام العز والسعد والاقبال
فرمى لي قطعة من الذهب واظهر مسروره مني نظرا لتاديبه واجباتي وحسن
مساعاي ومن فرحي بذلك ناديت بعض الاولاد الصغيرة الذين كانوا بالقرب
مني للركوب على ظهري فوق بعضهم وانا حامل القربة ففعلوا ذلك
وتعجبت الناس وازدحموا حولي وهم يثنون عليّ ويشكرونني على اجتهادي
ثم ناديت على ولد آخر فما أدري الا وخصمي فرق الجوع ونظرا كبا بقوة
زائدة يريد البطش بي وطرحي على الارض بحملي وانه لاشك ان هذا هو
الوقت الذي يتمكن فيه لاغاظتي ولكني قويت نفسي وشددت ظهري
على قدر طاقتي وقويت عزمي في رفع حملي بين الجوع الذين كانوا ينشطونني
ويشجعونني والكل باهتون وينظرون لي وما شعرت بألم حال اظهار قوتي
في رفع هذا الحمل وحرارتي في بذل مجهودي ولما أزحت الحمل عن ظهري
وفرحت عن نفسي وجدت أن ظهري انقسم وحصل لي تعب شديد ورأيت
ان حالتي لما اعتراها من الضعف لا تقوى على مداومة حمل السقاية
ونويت ابطالها كلية وبعت قربتي وجميع أدواتي حيث أصبحت في غنية
عظيمة من الدراهم التي جمعتها من بيع المياه وعدت لحالتي الاولى وقت
وصولي لمدينة مشهد الا أن صاحبي المكاري سافر مع قافلة الى طهران
قبل العيد بيومين ولذا حرمت من مشوراته ونصائحه وكنت عازما على
اعمال دعوة ضد خصمي وطلبه أمام القاضي ولكن رأيت ان الشريعة
المحمدية لا تجوز كسر ظهر بظهر وفقط المكتوب العين بالعين والسن
بالسن ولم يذكر الظهر بالظهر ولو كان لي محام يذب عني ويقهر خصمي
لاخذ بثاري وقد وجدت نفسي غريبا لا يعرفني أحد وليس لي من مساعد
ومهما فعلت لا أنال شيأ الا ضياع الدراهم التي اكتسبتها فتركته وسلمت

أمرى لله سبحانه وتعالى

الا ان هذا الدهر لا زال مولعا * بجمع اخى فضل فيثقله وقرا
ولم يكفه حتى يسدد نحوه * من الخطب سهما صائبا يقصم الظهرا

﴿الفصل العاشر﴾

﴿فى تدبيرات الحاج بابا لنفسه وصيرورته بياع دخان على قارعة الطريق﴾

ثم مكثت أشاور نفسى فيما أفعله فى مستقبل معيشتى وقد انفتح امامى جملة أبواب مختلفة للمعيشة ورأيت ان أعظم طريقة أسلكها هو (سؤال الناس الصدقة) التى لها موقع حسن فى مدينة مشهد وقد برهنت على ذلك من بيعى المياه وانه يمكنى فى أقرب وقت الرئاسة على هذه الحرفة ثم تفكرت فى حرفة اللوتى وان اشترى دبة فقلت فى نفسى ان هذه الصنعة يلزمها التمرين وتعليم الطرق التحيلية من جهة وكيفية تربية الدبة من جهة أخرى وعلى ذلك رفضت هذا الامر وكان عقلى يتروى فى اتباع حرفتى الاصلية وهى الحلاقة وقلت اذا قعدت دكانا فلا يمكنى السلوك فيها بالنسبة لكثرة الحلاقين فى هذه المدينة وشهرة الكثير منهم فى اتقان هذه الحرفة فأخيرا تنازلت عن هذه التصورات وقررأيى بان اسرح فى الشوارع بالدخان لميلى الشديد فى تعاطيه ومعرفتى بانواعه وعلى ذلك اشتريت جملة شبكات مختلفة الحجم وعلبة خشب محتوية على اقسام الشبكات وعلقتهما حول القباء واشتريت مجمرة حديد للنار احملها بيدى وماشتى حديد وكوزا نحاسا للمياه مشبوكا بخطاف خلفى وبعض أكياس طوال لوضع الدخان فيها وربطت جميع هذه الادوات حول جسمى وكنت لما اشحن بها نفسى كان كل من يرانى يقول انى مثل القنفذ المنتفش شوكه وكان عندى انواع

مختلفة من الدخان مثل تباز وشيراز وسوذه ودمشق وفى الحقيقة ما كان عندى ضبط كلى فى بيعه نقيا فانه بوجود جزء صغير من ورق الدخان الصافى كان يتكون عندى مبلغ وافر بواسطة مزجه بجزء كبير من أنواع الزبل المختلفة وكان لى مهارة عظيمة فى التفرس فى زبائنى ومعرفة أصحاب الكيف الذين لا يجهلون شرب الدخان فكنت أعطيهم من الدخان الذى اغلبه صاف وفى الواقع كانت جميع مكاسبى متعلقة بفرز وتمييز الطبائع فالناس المتوسطون أعطيهم النصف ممزوجا والاقل منهم الربع صافيا والثلاثة أرباع مغشوشة واما الدون فكنت أغشهم بذبل البهائم الخالى من الدخان وكنت عندما يتراءى لى وجه عبوس يشكو من رداءة الدخان فنى الحال ابذل مجهودى اليه فى تحسين دخانى وأريه جزأ من الصافى وانشد له فى ذلك أبياتا بليغة وأخبره عن الزارع الذى بذره وجمعه وأجتهد بان اصف له اعظم أرض نما فيها هذا الصنف حتى انى اشتهرت فى مدينة مشهد بلطافة شبكاتى واعظم زبون عندى كان درويشا اسمه صفر ما كنت اتجاسر على اعطائه دخانا مغشوشا لمعرفته فيه ولم أربح منه شيأ الا الطفيف لتأخره فى وفاء الثمن الا أنه كان أنيسا يسلينى بمجاورته اللطيفة على همومى وزيادة على ذلك فانه توسط لى فى احضار جملة زباين حتى ان محبته صارت غريزية فى قلبى وجسمى وكان الدرويش صفر غريب المنظر ذا انف مستطيلة كبيرة وعيون حادة سوداء ولحية غزيرة وكان مسترسلا على كتفيه كمية عظيمة من الشعر الاسود وكان لابسا فاروقا مخروط الشكل مكتوبا عليه كثير من الآيات القرآنية والاحاديث القدسية وعلى ظهره جلد غزال أحمر من الخارج وبيده عكاز من الفولاذ يحمله على كتفه فى أغلب الاحيان وبيده الاخرى كشكول فارغ ذو سلاسل ثلاث يرفعها امام السياحين عندما يطلب منهم الصدقات وكان

لابسا فى منطقته أبازيم من حجر اليشم ومعلقا فيها جملة من مشابك خشب ثقيلة ولما يخطر فى الشوارع والاسواق بهذه الهيئة يستعمل الالفاظ العذبة ويظهر الرعب والخوف والمذلة لمن يسألهم ويبدى لهم التشكرات والامتنانات ويكلمهم بالخضوع وقد علمت ان هذه حيلة منه على المعايش لانه لما كان يحضر عندى لشرب الدخان ويختلى بى ولم يكن أحد معنا كنت اجده ألطف وافصح الناس منطقا وجسارة وبعد أن تمكنت المحبة بيننا مدة عرفنى بشرذمة قليلة من الدراويش وهم اناس من شكله وحرفته الا أنه كان منفردا بمعيشته وكنت أتردد غالبا فى جمعياتهم وان كانت هذه الحالة على غير المرام ولكن لحسن جمعياتهم ولطافتها ما كان يمكنى الاعراض عنهم لا للنظر لكثرة تعاطيهم الدخان فانى كنت أبيعه اليهم بدون مكسب يقوم باتعابى مثل زبائنى ثم حدث ذات يوم ان الدرويش صفر جلس عندى يتحدث وبعد أن اكثر من التدخين فوق العادة قال لى

(ياحاجى بابا) انى أراك رجلا أنعم بك من انسان وانى أراك لست أهلا لبيع الدخان طول حياتك فلماذا الا تزاملنا وتتخذ حرفة الدراويش مثلنا أما تعلم أننا نقبض على ذقون الرجال بكل سهولة وهى عندنا أهون من التراب على انه يندر وجودنا فى جهة واحدة بل ننتقل من مكان الى آخر وهذه تختلف بحسب الاحوال والظروف على حسب ما نحن فيه من الكسل وان الجنس البشرى أمام أعيننا مثل فريسة سهلة المأخذ وبذا نعيش على ضعف قلوبهم وسخافة عقولهم ومما رأيته من فطانتك وحذاقتك أظن انك تشرف حرفتنا وتجعل لها الصيت الاعلى وما يمضى غير قليل حتى يشتهر أمرك شهرة تامة لا تقل عن شهرة الشيخ السعدى نفسه فلما سمع أفرانه كلامه صدقوا على مقالته وصاروا يمدحونى ويغرونى على دخولى معهم فى سلك

الدراويش فاعتذرت لهم بجهلي وعدم معرفتي هذه الحرفة ويلزمني بعض تمرينات وتعليمات وقلت لهم كيف ذلك وأنا رجل جاهل لا أدري شيأ وأدخل في الدروشة مع ان الانسان يلزمه أن يكون حاذقا ذا معرفة ببعض معلومات يحتاج اليها الدرويش (نعم) حقيقة أعرف الكتابة والقراءة وأحفظ القرآن ودرست كتاب الحافظ والسعدي تقريبا على ظهر قلبي وخلاف ذلك فاني قرأت جزأ عظيما من شاهنامة الفيردوزي وماعدا ذلك فاني أعد نفسي فيه جاهلا بالكلية

فاجابني الدرويش صفر قائلا آه ياصاحبي ماهذا الكلام أما تعلم ان الدراويش عديمو المعرفة وانهم أقل الناس علما ولا تحتاج لمعارف لدخولك ضمن الدراويش فليس ذلك من صعاب الامور وأول أمر يلزمك هو الثبات والتجلد وانك بخمس المعلومات التي ذكرتها وبجزء من الكسافة والوقاحة أعدك انك لا تتسلط فقط على أكياس الدراهم بل وعلى حياة من يلقوا آذانهم اليك فاني بالوقاحة صيرت نفسي نبيا وصاحب معجزات واني أعيد الاموات لحالة الصحة

وبالوقاحة فاني أختصر لك أسهل طرق المعيشة واني مهاب ومعتبر بالناس الذين مثلك أما تدري ياحاجي حالة الدراويش وماهم عليه من المكر والخديعة فالدروشة شئ لا يذكر أما تعلم ياحاجي اني اذا أردت أتعب نفسي وأتحمل الاخطار وأظهر انه في امكاني ابداء معجزات سيدنا محمد عليه السلام فانهم يعتقدون أني نبي مثله أما تعلم ياحاجي انهم يعتقدون من شدة جهلهم انه في امكاني أشق القمر نصفين باصابعي كما فعل النبي عليه السلام وقد تحيلت بمثل ذلك حتى اعتقدت الناس الذين يسمعون بمعجزاتي أما تعلم ان الوقاحة والسماجة ينتج منهما ذلك وأكثر منه بواسطة طرق مستحسنة يلزمها السعي بهمة والتفات

(قال الحاج بابا) فلما انتهى الدرويش صفر من حكايته صدق عليه جميع اخوانه وهم يزدادون مدحا وثناء عليه ويكررون جملة خرافات عجيبة من ضمن أعمالهم التي سبقت لهم حتى اني تشوقت جدا للوقوف على حالة هؤلاء الرجال الفائقين الحد في المكر فوعدوني انهم يقصون لي تاريخ حياتهم عند المقابلة مرة ثانية وأوصوني غاية الوصية بوقتها وشجعوني بان أحول أفكاري لمعيشة ذات شرف ورفعة مثل هذه أحسن من أن أكون بياع دخان متصفا بالغش وعدم المأوى

(الفصل الحادي عشر)

(في تاريخ الدرويش صفر والدرويشين الآخرين)

فلما اجتمعنا ثانيا وكل منا بيده شبك وجلسنا في غرفة راكنين ظهورنا للحائط وكان شباكها مطلا على ميدان صغير مزروع بالازهار ولكون الدرويش صفر هو الرئيس المقرر لجمعيتنا الآن فابتدأ يقص تاريخه بما يأتي (قال الدرويش صفر) ان والدي كان متوظفا بوظيفة لوتي باشا (ريس سخرية وحواء أمير شيراز)! وقد اشتهر باسم الطاوس وهو اسم مقبول واذا كانت وظيفته هذه فلا يخفى عليك حالة نشأتي وتربيتي كيف كانت حيث ان أعظم أصحاب اجتمعت بهم مدة طفوليتي هم قرود دب والدي وأصحابه المماثلين له فان الحيل العديدة التي تعلموها والطرق السهلة التي اتخذوها في تربيتها كانت فائدة لي مدة حياتي نظرا لما كنت أراه من التشخيص اللطيف وبذلك لم أتم سن الخمس عشرة سنة حتى صرت لوتيا مستعدا فكان يمكنني أكل النار وتأدية شغل الحيل والمكايد اليدية وكنت على وشك النجاح في هذه الصناعة لولا تعلق بنت جنرال جالة طوبجية الامير بعشقي عند ما رقصت ذات مرة ولعبت على عقدة البهلوان بالديوان

في أحد أعياد أول السنة وتصادف ان أحد الجمالة الذين تحت سلطة هذا الجنرال كان صديقا لي وله اخت تخدم في منزل الجنرال فاخبرته اخته بما حدث لبنت الجنرال وما بها من الهيام بعشقي حيث انها لمحت من سيدتها بعض اشارات تدل على محبتي

فلما أخبرني بذلك صاحبي مال فؤادي اليها وأسرعت الى مرزا (كاتب) قاعد في دروة صغيرة في السوق وسألته أن يكتب لي جواب عشق ويكثر من احرار الخبر على قدر امكانه ويبالغ في التحية والسلام ويبث فيه ما أصابني من العشق والهيام وينشد فيه القصائد والاشعار التي تحير الافكار فلما كتبه وقرأته وجدته عذب الالفاظ عديم المثيل شفاء للعليل بل هو السلسبيل يهيم بمطالعته العاشق الولهان ويفيق بسماعه المغرم السكران ويقول في مطلعه بعد العنوان الى سيدتي المعشوقة فريدة الزمان ما معناه

لما بدت عيناكِ * قد ذبت من هواكِ
بقدكِ القتالِ * هل حيلة للقتالِ
أو نظرة من بعيد * أحسن من ألف عيد
تبشرا لعميد * بنيل وصل سعيد
أنا عبدكِ المكمود * ان لم تفي بالوعود
عدمت فيكِ الوجود * وملتقانا الخلود

(قال الدرويش صفر) فلما قرأت الخطاب وانسر منه خاطري واستطاب انبسطت من الكاتب الذي سلاني وبلطافة ثره شجاني الا أنه لما وقف على حقيقة سري المكنون ليستقر في مكانه بل هرول يخبر الجنرال بالواقعة واجبا أن يجازيه نظيرا تعابه وقال له كيف ان ابن اللوتي باشا يواصل بنته

زمبور كشى ياشى بالفاظ غزليه فهذه غاية لا تدرك وذنب لا يغفر فغض والدها لهذه الحكاية وقصد بى النكاية ولكونه نافذ الكلمة فى الديوان عرض للامير مسئلته بالبيان وتحصل منه على أمر يؤذن بطردى حالا من شيراز وكان يوما مشؤما فرح فيه أعدائى وتجنبنى أصحابى وأخصائى فلما بلغ والدى هذا الخبر المشؤم ما استطاع ان يتقوه بكلمة حذرا على مزاج الامير من الاغبرار وزيادة على ذلك خوفا من ازدياد شهرتى بين أبناء جلدتى ووقاية من منازعتى له فى حرفته لم يؤخرنى عن الرحيل بل أخذ فى استعداد ما يلزمنى

ثم وفى صباح ثانى يوم وانا متاهب للقيام من شيراز وكنت أودع أصحابى القرود والدب وحيوانات أخرى عند والدى قال لى (يا ولدى) يا صغرا علم انك أنت مهجة قلبى وثمرة فؤادى ولبى ولا طاقة لى على فراقك ولكن طاعة للامير تحملت هذا الضرر الخطير وها قد أودعتك عند رب العالمين حيث قال تعالى واطيعوا الله والرسول وأولى الامر منكم وانى مؤمل يا بنى انك تعيش مدة حياتك فى أرغد المعايش بالنسبة لتربيتك والفوائد الخصوصية التى تحصلت عليها بوجودك فى جميتى بينى وبين حيواناتى وانى سأتحفك الآن بما يؤكد ويحقق لك سعادة قريبة ألا وهو قردى الكبير الرئيس عليهم وهو مستوفى التربية بجميع انواعها فخذه يا ولدى وتصاحب معه وألفه عليك لخاطرك وأكرمه حبا لوالدك وعشمى انك فى وقت قليل تكتسب الدرجة العظمى فى الشهرة التى حازها والدك وبعد ان أنهى كلامه وضع القرد على كتفى وودعنى وخرجت مصحوبا به تاركا الاهل والاوطان سالكا الطريق الموصل الى أصبهان وانا فى كرب عظيم حيث شق على معرفة حالتى ان كنت سعيدا أو شقيا لتغيير هذه الاحوال لان وجودى مستقل مع القرد دلالة على سعدى وتسليتى به وأما هجرى

أصحابي وأوطاني الغالبة التي ربيت فيها منذ طفوليتي وزيادة على ذلك فراق حبيبتي اللطيفة التي لم أر هابل تصورت في ذهني انها تعادل (شيرين) المتصفة بالجمال في القد والاعتدال فهذه الاحوال كدرتني وما أدري وانا تائه في بحور التذكار حتى وصلت الى صومعة أحد الدراويش وكنت في حالة رديئة كدت فيها أن اقطع اليأس من حياتي فجلست على حجر بقرب الصومعة وفردي بجانبي فهوّنت على نفسي لتخفيف حزني وسالت دموعي على خدي كالطوفان وصحت بنغمات كل من يسمعها يشفق بحالي وقلت آه واهي آه واهي ياغربتاه وياذلي بعد عزي ومفارقة اهلي ووطني

فلما سمع الدرويش صياحي خرج من خلوته وسألني عن مصيبتي وماد هاني من نكبتي ثم ادخلني الى مكانه فوجدت درويشا ثانيا عليه هيبة وعظيم المنظر عن رفيقه اذ كان لابسا مثل لبسي هذا والقاووق الذي على رأسي الآن هو حقيقة تعلقه والذي أوجبه هذه الهيبة والوقار هو ما جبل عليه من هيئته الوحشية وتقطيب وجهه الظاهري وبمجرد ما رآني مع رفيقي الفرد أحاطت به الافكار ودعا بالدرويش الثاني وبعد ان تداولا في خلوة قال لي ان في عزمه مصاحبتي الى مدينة أصبهان ووعدني بالتفاته الزائد نحوي وانى اذا أحسنت سلوكي يرشدني الى الطريقة التي تكون سببا في ثروتي فبوقتها قبلت منه ذلك وبعد ان ناولني شبكا أتدخنه فلما شربته قمنا وسرنا مسافة طويلة بدون أن أتكلم معه الا القليل وكان اسمه الدرويش (بدين)

في أثناء المسير اقترب نحوي وسألني عن حالتي السابقة فقصصت عليه رحلتي فلما سمع ما أنا عليه من العلوم والمعارف وكانت تلوح عليه علامات السرور الدالة على انبساطه مني أطنب في المدح على الفوائد التي تنتج من

معيشة الدرويش واثبت رفعتها وشرفها عن حرفة اللوتى الدنيئة وحرضنى على الدخول فى حرفته ثم أخبرنى انى اذا التفت اليه واعتبرته كسيدى فيعلمنى جميع مايعرفه بعد أن أكد لى أنه على جانب عظيم من المعارف وزيادة على ذلك فهو معدود من أشهر وأكبر الدراويش فى بلاد العجم

وشرع يتحدث معى عن السحر وعلم الفلك وذكر لى جملة أبواب فى العزائم والطلاسم والاحراز التى يستعان بها عند اللروم وانى ببيعها اتحصل منها على مايكفينى من الدراهم واخبرنى ان من الفوائد انك اذا وضعت ذنب أرنب تحت وسادة الصبى فانه ينام واذا سقيت دمه لحصان يجعله سريع الحركة فى السير وكذا عين واصبع ومفاصل الذئب اذا علقت على الصبى فانها تقويه واذا دلكت بدهنه المرأة تتبدل محبة زوجها اليها بالاغضاء والكراهة وأيضا اذا دلكت بمرارته المرأة يكون لها القبول والمحبة فى قلوب الناس وان أعظم شئ ذو قيمة ثمينة يستعمل فى السرايات هو كيس كوفتار (وهو جلد اللبوة اليابس) اذا لبسه الانسان وجعله رداءله فان محبته تنبت فى قلوب جميع الناس ويميل اليه من يراه

واستمر الدرويش بدين يتحدث معى طويلا فى مثل هذه المواضع وأغوانى واستمال عقلى بغرس هذه الفائدة فى قلبى التى بها أظهر لى النجاح عيانا ومازال كذلك حتى انه أخيرا تجاسر ان يتندى فى بيان مشروع بعدان أورى عدم امكان موافقته وقال ياصفر انك لاتعلم الكنز الذى تمتلكه فى هذا القرد ولم أقصد وجود الكنز فى حال حياته بل بعد موته ولو كان ميتا لامكنى ان استخرج منه بعض اجزاء تعمل أحرازا وتباع بثقلها ذهبا داخل حريم الشاه ويلزمك ان تعلم ان كبد القرد وهو الذى يكون من جنس قردك لاغير اذا حمله الانسان فانه مجرب فى جلب محبة من يريد وقضاء حوائجه واذا لف الانسان جلدا نفسه حول عنقه فيكون مانعا حصينا

لدفع السموم وهو من التجاريب العظيمة ورماده بعد حرقه على نار بطيئة اذا استعمل من الداخل للطفل فانه ينمو بخصال القرد ومكره وخديعته وتكون جميع تصوراته مشابهة لتصورات القرد فى كل أفعاله وعلى ذلك شرع فى قتل القرد فحصل لى انزعاج كلى لهذا القصد لان تربيتى كانت مع قردى من الصغر وانه اخر جنا سوية لطلب المعيشة وزاملنى فى السراء والضراء وقتله بهذه الحالة الوحشية لا طاقة لى ان أتحمله على ما أنا فيه من الغم والكرب فصرت أحاوله عن قتله ولكى لما رأيت بشاشته ومحبته نحوى كادت ان تميل للقسوة والخشونة وخشيت أن يأخذه جبرا مع عدم مقدرتى على حمايته قبلت وأنا فى غاية الحزن الشديد الذى لا يتصور باتمام مقصوده ونجاز مطلوبه

فلما سمع ذلك شكرنى وملنا عن الطريق لواد صغير خالى عن الناس وجمعنا سوية بعضا من القش والحطب وعملنا راكية وأخرج زنادا وصوانا كان معه وأولع به النار ومسك قردى بيديه بدون شفقة وذبحه وشرحه وأخرج كبده وسلخ جلدة انفه وحرق باقيه على الكانون الذى عملناه ولما احترق جميعه وصار رمادا جمعه بكل احتراس ولفه فى طرف فوطته واستمرينا فى سياحتنا وظللنا سائرين حتى دخلنا فى الوقت المناسب مدينة أصبهان وفيها قلعت ملابسى التى على شكل اللوتى ولبست بدلا عنها على زى درويش وقمنا منها قاصدين طهران وفى هذه المدينة تحققت من علو درجة سيدى حيث بمجرد ما استنشقت الاهالى حضوره أقبلوا يتزاحمون للسلام عليه واستشارته فى الامراض وجل الامور فكنت أجد الامهات تطلب منه حرز الاولاد هن من الحسد والنظرة والزوجات تطلب حجابا لمحبة ازواجهن من غيرتهن عليهم والشجعان تطلب منه طلاسما لحمايتهم من ضرر وخطر الحرب أثناء القتال وكان أعظم زبائنه حريمات السراية الملوكية حيث

أغلب ما يطلبونه حجاب يستجلبون به التفات الملك نحوهن (قال صفر) وقد جمع الدرويش بدين مبلغا عظيما من المهمات والادوات اللازمة لهذا المشروع فكان مستحوزا على شعر الفهد وسلسلة البومة وشحم الدبة مجهزا اجهزة مختلفة وقد حدث ان احدى السيدات الموجودات فى السراية كان الملك لا يلتفت اليها لتقدمها فى السن وتأخرت عن أقرانها فأتت اليه واخبرته بالمسئلة فباع اليها كبد قردى وقال لها انك بحملك اياه و بمجرد ظهورك امام الملك فانه يحبك محبة عظيمة و يقدمك على اقرانك وتفوزى بالنصر على أعدائك واتت اليه أخرى وأخبرته بما اعتراها من التمرض والانحراف دواما وانها أعيتها الحيل فلم ينجع فيها الدواء فاستخدم لها منقوعا من رماد قردى وحضرت له امرأة ثالثة واشتكت له من تكرش وخشانة وجهها فاعطاها دهانا وأوصاها انها اذا استعملته ولم تتبسم ولم تحرك أعصاب رجلها فانه بدون شك يزيله و يمحو أثره كلية وفى هذه المدة كنت ابتدأت فى تعليم جميع هذه الاسرار ووقفت المرار على قسم كبير من المكر والخداع والحيل مما كان يستخدمه سيدى عندما يضطر لعمل فوق العادة لاثبات صداقته وكرامته اذا اتضح ان احرازه لم تأت بادنى ثمرة ولكن مهما كانت الحالة ان لم ينجح بواسطة هذه الاستخدامات فلا بد ان تحصل فائدة من أجزاء قردى وكان يأخذ جميع الدراهم لنفسه بدون ان أمس منها بارة وقد رافقت الدرويش بدين فى جملة بلاد نباشر فيها حرفتنا فكان الناس يعدوننا بعض الاحيان كالاولياء و يشاروا لنا بالبنان وأحيانا نرجم بالاحجار كالملاعين ولكون سياحتنا كانت جميعها على أقدامنا فكان ذلك فرصة عظيمة لمعرفتى الاماكن والبلاد تفصيلا وقد سافرنا من طهران الى اسلامبول ومنها الى مصر القاهرة مارين على حلب ودمشق ومن مصر توجهنا الى مكة المكرمة والمدينة المنورة وركبنا البحر من جدة ورسينا

على سورات فى برجوزرات ومنها سلكنا قاصدين لاهور ومنها الى كشمير وفيها على حسب عادتنا اجتهد الدرويش فى أن يغش أهلها ويدخل عليهم بالتحيلات ولكن لكون أهلها متنورين ويعرفون مانحن عليه من المكر والخديعة اتجبرنا على الانسلال منها خائبين واتفقنا على الرحيل الى مدينة هيرات حيث عدنا الفلاحنا ونجاحنا السابق لقصور عقل الافغان الذين كانوا يقبلون ويميلون لكل مانحتاج ان نخبرهم به

وبما أن الدرويش كان فى هذه المدينة مجتهدا فى الحصول على طريقة يظهر بها نفسه انه نبى وقد قاربت معدات أعمال المعجزات على الانتهاء وقد كان وعد الوفا بحفظ شبوبيتهم على الدوام فاخبرا كان هو اول من وفى بتسليم نفسه الى طوارق الطبيعة وذلك انه كان استكن فى صومعة صغيرة فوق جبل بالقرب لهراج وقفلها عليه وادخلنا فى ذهن الناس الطيبين انه لا يأكل طعاما غير الذى يحضرونه له الجن والاعوان وصدقوا ذلك ولكنه من سوء البخت لشدة شراهته على الطعام احدى المرار كان أكل قوزيا مشويا وحلاويات زيادة عن طاقته فتسبب له منها تخمة تفات وبالنسبة لذمتى وصداقتى معه التزمت بان أقول للناس انه نظر الغيرة الجان منا نحن الجنس البشرى لاستحواذنا على رجل جليل المقدار مثله احضروا له طعاما مسموما وملؤا جسمه منه حتى تورم وانتفخ ولم تجد روحه مقرا لها فانجبرت بالخروج من جسمه وحملت الى السماء الخامسة بريح شمالى عاصف (اذ كان هبوبه فى هذا الوقت عند موته)

وهذه الريح كانت تهب أربعة أشهر الصيف وبدونها تكاد الاهالى تموت من شدة الحرارة واجتهدت أن اجعلهم يصدقوا ويعتقدوا ان هبوبها كرامة من الدرويش اليهم وانها ستكون ميراثا لهم ولذريتهم من بعدهم فالمشايخ الذين حقيقة تذكروا هذه الريح منذ صباهم كانوا يرددون

أفكارهم فيها اغا لقصر فهمهم وركاكة ذهنهم اطبقوا على ما أبدبناه
من التأثير وسلطة أعمالنا فدفن الدرويش بغاية الاكرام والاحترام
الزائد حتى ان أمير هراة عاشق مرزا ساعد بحمل النعش على كتفه الى
القبر وبنى أحد أتقياء الافغان المشاهير ضريحا له على قبره وصارت من
وقتها تأتى اليه سكان البلاد المحيطة به لزيارته وأصبح محلا للحج اليه سنويا
وقد أقمت فى هراة مدة زمانية بعد وفاة رفيقى كى أتمتع بالفوائد والهدايا
التى كانت تعطى لى لكونى صاحبا وتلميذا الشيخ مثل هذا حاز أعظم شهرة
وبذا لم أندم على هذا العزم ثم بعت احرازى التى عندى باثمان غالية وغير
ذلك جمعت مبلغا وافرا من بيع الشعر الذى كان يتساقط من تمشيط لحية
المتوفى وقلامة أظافره وأكدت للمشترين ان الشعر المتساقط والاظافر
تحفظت عليها مدة وجوده على الجسد مع انه فى نفس الامر أغلبهم متجمع
من شخصى وبعد ان بعت جزأ وافرا من آثار الدقون والاظافر التى
كنت أتحصل عليها راودت فكرى انى اذا استمريت على هذه الحيلة
فخشية من تنبه خسافة عقول الافغان يكشف سترى ويظهر غشى
فلذلك سافرت منها الى جهات مختلفة من بلاد العجم واستقريت أخيرا فى
قبيلة هزارة وهى قبيلة كبيرة أغلبها يسكن الخيام ويقيم فى الخلاء الفسيح
الذى بين كابول وكندهار وهناك طاب عيشى ونجحت نجاحا عظيما زيادة
عما كنت انتظر لاستعمالى التحيلات التى كان يجريها المرحوم
الدرويش بدين فى مدينة هراة وبالفعل ظهرت بينهم على هيئة نبى
(قال الحاج بابا) وبينما كان الدرويش صفر فى سياق حديثه اذ وضع يده
على كتف الدرويش الجالس بجانبه وقال ان صاحبى هذا كان مرافقا لى
فى تلك الجهة وهو خبير بخداعنا ومهارتنا فى جذب عقول الهزارة حتى
انهم كانوا يعتقدون ان عندنا وعاء ملآنا من الارز المفلفل على

الدوام وقد فهموا أن وجوده ملآن بدون أن ينقص فهى معجزة رسمت فى ذهنهم السخيف واستمروا على اعتقادهم ما داموا يأخذون نصيبهم من هذا الوعاء

و بالاختصار فانا المشهور باسم (حضرة ايشان نفسه) الذى سمعت عنه سابقا فى خراسان وان كانت شهرتى الظاهرة لم تبرهن باظهار أدنى معجزة ضد الاغارات التى أغار بها الشاه عليها باسلحته ولكن بعد انتهائها جمعت من تلامذتى الذين ينتمون الى بطياشهم وتقلقل عقولهم ما يكفينى لمعيشتى به عيشة هنية مدة حياتى ثم حضرت مدينة مشهد وأقمت بها من مدة قريبة ولم يمض علينا أسبوع حتى أخذنا نتدبر فى اعادة نظرا بنسه ضريرة وها نحن الآن فى درجة عظيمة من التبجيل والاحترام

(قال الحاج بابا) والى هنا انتهى الدرويش صفر من تاريخه وطلب من رفيقه المجاور له سرد ما وقع له وهو الدرويش الذى كان مرافقا له فى قبيلة الهزارة فقال ما يأتى

ان والدى كان رجلا من أشهر أتقياء مدينة (كوم) وقد شاع ذكره بمواظبته على الصلوات الخمس ودقة الوضوء والتمسك بالديانة والصيام بكل احتراس زيادة عن أعظم رجل فى بلاد العجم و بالاختصار كان زهرة الشيعية وأنموذجا للامة الاسلامية وكان له جملة أولاد وقد أحسن تربيتنا وعلمنا بكل دقة قواعد ديانتنا وأما العنف والشدة التى كان يعاملنا بها مدة تربيتنا كنا نقاومها ونصادمها بالمكر والرياء حتى اننا انتسبنا لهذه الاوصاف وأصبحنا بصرف النظر عن أحوالنا كزمرة المنافقين المنتشرة وبالاخص شاع أمرى ولكن لوقايتى من هذه الفضيحة دخلت فى سلك الدراويش وشهرتى منسوبة للسعادة الآتية التى نتج لى منها الحظ الوافر وكانت سببا لسعادتى وهو انى لما فقت من بلادى ووصلت مدينة طهران اتخذت مسكنا

مقابلا لذلك كان عطار وبينما أنا على هذه الحالة اذ أسرعت نحوى عجوز تخبرنى ان سيدها العطار اعتراه مرض شديد فى هذا النهار باسباب تعاطيه طعاما زيادة عن طاقته وان الادوية التى استعملها لم يؤثر مفعولها وان عائلته يريدون تجربة الفوائد الروحانية لعلها تؤثر وترجتنى ان اكتب له تعويذة موافقة لحالته وبما انه لم يكن بطرفى فى هذا الوقت أقلام ولا ورق ولا حبر فسألتها بتوجهى صحبتها داخل الحريم فقبلت ذلك وقمت معها فاوصلتنى الى فسحة مربعة ودخلت أودة حيث وجدت المريض ملقى فوق فراشه على الارض وكان محاطا بجملة من النساء على قدر ما يسع المحل فلما رآنى صرخ صرخة عالية قائلا واهى واهى يا الله يا رب قد أشرفت على الهلاك

فرأيت أدوات المعالجة منتشرة فى المحل بعد العملية التى أجراها اما أن يموت بواسطتها أو ينجو بها وشاهدت أيضا طشطا موضوعا فوق الرف محتويا على احقاق الادوية ووجدت انبوبة زجاج وهى آلة العذاب موضوعة فى احدى الزوايا والحكيم جالس غير مبال يشرب فى شبكة بين هذه الادوات وقد أيقن ان وسائط الجنس البشرى عاجزة عن نوال مقصودها مالم تستعن ببعض مساعدات خارقة للعادة ولذلك قرر أنه أخبرا على استعمال الفوائد الروحانية التى كان من نصيبى كتابتها

ولا يخفى ان الدرويش الجديد يشغل أفكاره بآماله المستجدة لان دخولى على المريض أوجب لهم هياجا عظيما

ولما جلست طلبت منهم ورقا بنغمة متسلطة لمشاهدتى منهم الميل والمحبة الشديدة نحوى على انه لم يسبق لى كتابة تعاويذ لحد الآن ثم أحضر لى ورقة كبيرة يظهر انه كان ملفوفا فيها بعض أجزاء من العطارة وقد موا لى قلما ودواة فمكثت وأنا فى غاية الرزانة والوقار اسود فى الورقة واكتب بسرعة

كلمات بحروف متفرقة التى لو جمعت جميعها لا تجدها محتوية الا على اسم الله وسيدنا محمد والامام على والحسن والحسين وأسماء جميع الائمة مرسومين بالاختلاف وكنت أضيف عليها اعدادا بدلا عن الاحرف فى الحواشى ثم ناولتها بكل احترام للحكيم فدعا بماء ووعاء لغسل الكتابة التى فى الورقة وكان جميع الحاضرين يدعون الله بتأثير هذه الكتابة الشريفة وحصول الشفاء منها وبعد غسلها قال ليشرب المريض منها على بركة النبى عليه السلام حتى اذا كان له أجل فيشفى ببركة هذه الاسماء الشريفة التى سيشربها وان كان قصير الاجل فلا تفيد حذاقتى بشئ ولا ينفعه أى انسان بأدنى فائدة ثم نقطوا للمريض الماء فى فمه وكل انسان شاخص لنحافته وسقم وجهه متعشمين فى انتعاشه واعادته للحياة بعد ان مكث مدة بدون ان يتحرك كانه يئس من نفسه

وما ندرى بعد برهة الا والمريض نعر ورفع رأسه على ذراعه فاندهش الحاضرون والحكيم أيضا وكنت أنا بالاخص فى غاية العجب ثم فتح عينيه وطلب طشطا واستفرغ فيه بهيئة يظهر منها ان ذلك من تأثير أدوية ابن سينا نفسه وبالاختصار حصل له الشفاء

ولكن على مقتضى فهمى نسبت بوفتها ان التغيير الحسن الذى حصل هو من تأثير البهارات التى كانت فى الورقة وآثار الحبر نتج منها الحالة التى ذكرتها واجتهدت بالاثبات للحاضرين ان تمام الشفاء حصل بواسطتى وبسبب كتابتى الشريفة التى كتبتها ولولاى لمات ومن جهة أخرى فالحكيم أورى أحقيته وانه السبب فى شفائه لانه بمجرد المريض ما فتح عينيه صاح الحكيم قائلا ألم أقل لكم ذلك وان هذا تأثير أدويتى ولولا حضورى لمات العطار أمامكم

فلما سمعت كلامه أوقفته وقلت اذا كنت حكيما فلماذا لا تداوى مريضك

وتشفيه بدون ان تنادينى فكن فى حالك حيث لم يكن لك دراية الامسائل
الحراقات والفصادة فلا تتعرض ثانيا فيما لا يعنيك فاجابنى الحكيم وقال أيها
الدرويش المحترم لا أنكر ما أنت عليه من الجانب العظيم من كتابة التمائم
وبيعها بثمن غال ولكن كل انسان يعرف من هم الدراويش وما بنوا عليه
من التحيلات ولو فرضنا حصول الثمرة من أعمالهم الروحانية فلا ننسبها انها
كرامة منهم فلما سمع الدرويش كلامه غضب غضبا شديدا وطار الشرار
من عينيه وقال للحكيم يا ابن الكلب أتتكلم معى بعد هذا كله ألم تعلم انى
كنت خادما لنبي وأما أنتم يا حكماء فجهلكم يضرب به المثل فى نسبته للقضاء
والقدر وذلك اذا تصادف وشفى بواسطتكم مريض تنسبون أحقية الشفاء
لكم واذا مات تقولون هذا قضاء الله وان مساعى المخلوق لا تفيد شيأ فاخرج
من هنا (قم واخرج يا جاهل) ومر على المريض الثانى الذى تعوده ومتى ازداد
خطره فادعنى ثانيا وأنا أتمم لك جهلك الردى، وأشفيه لك كما داويت
العطار الآن فاجاب الحكيم وحياة رأسى وأنت لها الفداء انى لست من
الرجال الذين يسمعون ويقبلون مثل هذه الالفاظ من درويش أقل درجة
من الكلب ثم قام نحوى يريد بطشى بقوة تهديديه وهو يقذفنى بكل ما يقدر
عليه من المسبات فقابلته بكل احتقار ونسابقت نحوه حتى آل الامر للكم
بعضنا بعضا ومسك شعر رأسى وقبضت أنا الآخر على لحيته وصرنا نطعن
بعضنا بالضرب واللكم وما زلنا كذلك نتضارب ونتصادم بحالة وحشية
ونتقاتل بدون اكتراث بالمريض وصاح النساء وعلا صراخهن حتى كاد
أمرنا ينتهى لاسوأ حالة لولا هجوم احدى النساء علينا قد اشتد بها الغضب
وأكدت لنا ان ضباط الدروجاس (المستحفظين) يقرعون الباب
ويسألون عن السبب الناشئ منه هذا الصياح والانزعاج الشديد
فعلى ذلك انفصلنا وانسربت لمبل الحاضرين جهتى وأظهروا احتقارهم

وعدم اعتنائهم بمهارة الحكيم الذى غرضه الاصلى الحصول على الدراهم بدون فكره فى مداواة مرضاه أما أنا فكنا نوارونى أمامهم بهيئة تنبئ عليه نور الهى واعتقدوا ان بمجرد كتابتى عادت قوته وشفى من جميع أمراضه

فلما رأى الحكيم ما أصابه من اللوم والتنديد سحب نفسه للخارج وهو ذليل ومكسور الخاطر ولكن قبل خروجه طأطأ على الارض وجمع جملة من شعر لحيته المتساقط الذى نتفته منها على قدر ما وجد ومن مكره جمع أيضا جزأ من شعرى مع شعره وهزه بيده فى وجهى وقال انك سترى من هو الجانى والمحقوق منا عند وقوفنا باكرا أمام القاضى لان الشعرة الواحدة فى طهران تساوى دينارا وانى لمرتاب فيما اذا كانت جميع طلاسمك وتمائمك تساوى هذه القيمة أم لا

(قال الدرويش) فشفى الحكيم غليله وهبط غيظه بهذا الكلام ولربما بالنسبة لشهرته انه لا يتم مشروعه التهديدى فى طلبى أمام القاضى خوفا على شرفه من انتشار هذه المسئلة انما ما زال الرعب يداخلنى خوفا من توجهى للمحكمة لصعوبة هذا الامر فتركته وأنا أتأمل فى نتيجة العملية التى أجريتها مع المريض وما الفائدة التى سأكتسبها منها

فامضى النهار حتى شاع ذكرى فى المدينة وقالوا ان العطار (وهو أول من عالجته) الذى كان يكابد شدة الموت عالجه درويش مستجد حضر هذه المدينة بعد ان يئس الناس من حياته وقد انتشر خبرى فى جميع أنحاء المدينة وأصبحت ذو أهمية كبرى عند الاهالى وكنت أكتب التعاويذ من الصباح للمساء وأبيعها للناس بحسب درجاتهم واقتدارهم حتى انه لم يمض قليل من الايام الا واستحوذت على مبلغ جسيم من الدراهم انما من سوء بختى لم أصادف عطارا مريضا ولا قطعة ورق كما سبق فى أثناء هذه الايام فلما

تحققت

تحققت أن معيشتى وشهرتى منسوبة عن المعجزة التى أظهرتها مع العطار
وان حالتى آخذة فى التناقص استحسنت السياحة فى داخلية العجم وبوقتها
قمت وتوجهت الى مدينة طهران وفيها عزمت على الاقامة دواما بعد أن
رتبت أشغالى بمهارة تامة حتى أن شهرتى انتشرت فيها قبل وصولى اليها
وكان العطار أعطانى شهادة رسمية يختمه ذكر فيها أنه شفى من مرضه بعد
اليأس من حياته ببركة تعويذة كتبها بيده فكنت أبرزها لكل انسان أينما
أذهب بقصد تأييد حقيقة الاشاعات المنحصرة فى كرامتى وها أنا الآن
عائش بهذه الشهرة التى تكسبنى الدراهم العظيمة بغاية الراحة وانى كلما
أجد شهرتى أخذت فى التنازل أرحل لبلدة أخرى وهذه حكايتى

(قال الحاج بابا) فلما انتهى الدرويش الثانى من تاريخ تقدم الدرويش
الثالث لسرد قصته وقال ان حكايتى مختصرة وانى كنت فى الاصل محدثا
ولذا لا تحتاج للتطويل وقال ان والدى كان أستاذا فى احدى المدارس
وبمارآه من التفاتى وشدة قوتى الحافظة أمرنى بمطالعة التواريخ التى
ازدادت بلغتنا واعتادتها عليه فلما رأى ماحازه عقلى من هذا المجموع
الكافى ألبسنى حلة درويش لسرد الحكايات علنا أمام الجماهير من الناس
الذين يجتمعون حولى بقدر ما تقتضيه قصصى ولكن مسعاى الابتدائى لم
أنل به نجاحا تاما حيث بعد انتهاء قصصى يتركنى السامعون بدون أن
يعطونى أدنى مكافأة لاتعابى فسعيت فى الحصول على المقصود شيأ فشيأ
وذلك بدل عن استمرارى فى الحكاية لآخرها كما عودت نفسى سابقا فكنت
عندما أقترب لحصول نكبة أو مصيبة يتشوق الانسان لسماعها أقطع
الكلام وألتفت لمن حولى وأقول لهم ياسادة ياحاضرون اذا كنتم تتصدقون
على بشئ أتمم لكم باقى القصة وبذلك كنت أجمع حفنة عظيمة من الدراهم
النحاس اذ كان يندر جمع أقل من ذلك ولا فرض مثلا انه عند سياقى فى

تاريخ الامير خاتاى وأميرة سمرقند فعند وصولى لغاية هزارموت الوحش حين يقبض على الامير بفمه ويقترب على ازدراده واستقراره فى فم الوحش بين فكه الاعلى والادنى وجميع الحاضرين يقطعون الامل ويأسون من حياته والاميرة ساجدة على ركبتيها تتضرع الى الله بنجاته وعندما يخفون اتباعه رماحهم وهم فى حالة الذل والانكسار ويرتدون بخيولهم راجعين بحالة الفزع وكذا عند ظهور الرعد الى أن أصل لغاية ما يهمهم الوحش فاقطع الكلام وألتفت لمن حولى وأقول ياسادة يا كرام افتحوا أكياسكم واردفونى باحسانكم حتى تسمعوا ما أجراه الامير خاتاى من المعجزات والعجائب فى خلاصه وقطع رأس الوحش بنفسه

وبهذه الحرفة كنت أتحايل على معايشى بما أدهش به عقول الناس ولما تنتهى حكاياتى التى أحفظها كنت أنتقل لجهة أخرى وفيها أجدد أشغالى وها أنا على هذه الحالة للآن

﴿الفصل الثانى عشر﴾

﴿فى ان الحاج بابا يجد ان الغش لا يسلم الانسان من عقابه ولو فى الدنيا وفى تبصره فيما يعود عليه بالنفع من أمر مستقبله﴾

(قال الحاج بابا) فلما انتهت الدراويش من مقالاتهم شكرتهم على هذه القسلمة بما قدموه لى من النصائح والتعليمات وصممت العزم فى الحال بان أتعلم منهم طريقتهم بقدر امكانى لكى اذا ما اضطرنى الحال على ترك مهنتى الحالية أسلك طريق الدروشة

وقد علمنى الدرويش صفر كافة الحيل والخدائع التى يعرفها والتى اشتغل بها واجتنى ثمارها وعلا بها على جميع العالم حتى اعتقدوا انه من كبار الاولياء العارفين ثم أخذت فى تعلم كتابة التمائم والطلاسم من الدرويش الثانى حتى

أتقنتها وتعلمت من الدرويش المحدث بعض الحكايات والخرافات التي نجح فيها وأعارني بعض كتبه وذكر لي الطرق العمومية التي توجب انده اش الحاضرين منها حتى ينجبروا فيبذلوا ما في جيوبهم من الدراهم بدون ان يشعروا وذلك لما يعتريهم من الذهول عند سماعها وعلى ذلك استمريت في بيع دخاني ولما كانت مكاسبه عائدة على الدراويش ولم أنتفع بها اضطررت الى زيادة غشه بما أضفته اليه من الذبل والقش وورق الأشجار الناشف حتى قل انبساط الزبائن الآخرين منه

ثم تصادف في مساء يوم من الايام عند الغسق واقتراب انفضاض الاسواق أتتني عجوز طاعنة في السن وعليها ملابس رثة فاوقفتني وسألتني أن أملأ لها شبكا من الدخان وكانت متبرقعة بحيث لم يظهر من وجهها شيء ولم تكلمني بسوى ذلك

فملأت لها شبكا من أردا الدخان المغشوش فلما تناولته وتعاطت منه نفسا بصقت وكحت وما أدري الا وصاحت صيحة مزعجة فاتى ستة من العساكر وبيدكل واحد نبلة مفتولة وقبضوا علي وطرحوني أرضا وقد أزالت المرأة البرقع عن وجهها فاذا به محتسب المدينة وقال لي يا أقل أهل اصبهان ها قد ضبطتك فانت الذي من زمن طويل تسمم أهالي مشهد بتبغك المغشوش فلتقبض الآن زخما متتابعة بعدد ما قبضته من الشاهي (وهي نقود كل واحد منها يساوي تقريبا اثنين شلن انكليزيا) ثم قال لرجاله احضروا الفلقة ومدوه فيها واضربوه حتى تطير أظافر أصابع رجليه فما أتم كلامه الا وأدخلوا أرجلي في العقدة ورأيت السياط تتبادل على أقدامي ولم يزالوا يضربونني ضربا مؤلما حتى غبت عن الوجود وصار الضياء في وجهي ظلاما وتصور لي أمامي عشرة آلاف محتسب في زي عشرة آلاف امرأة عجوز وصرت مثلة بين الناس وكلهم يضحكون من تقلبي على الجانبين ويتشفون

فى وأنا أستغيث برأفة معذبى وأقسم عليه بحياة أبيه وأمه وبجده ورأسه وولده وأميره وأستغيث بالنبى عليه السلام والامام على وبجميع الائمة وأنا ألعن التبغ وبيعه وآلوذ عن حولى من المشاورين وبالثلاثة الدراويش الواقفين بدون أن يظهروا أدنى حركة لانقاذى فما أعانى أحد منهم واستمريت فى الصياح والصراخ والبلاء حتى ذهل عقلى وفقدت حاستى ولم أشعر بالم السوط

فلما أفقت وجدت نفسى مرميا ورأسى متكئة على حائط فى الطريق والناس مزدحمون بنا مأمورون لسوء حالتى ومافيهم من يشفق على وقد سلب منى شبكاتى وكوزى وجميع ما أمتلكه وتركونى أزحف الى بيتى على قدر امكانى والحمد لله لم أمكث غير قليل وأنا أزحف على ركبتى حتى وصلت الى منزلى لقربه من تلك الجهة وأنا أصعد زفيرا يفتت الاكباد

وبعد ان أقمت يوما فى المنزل أقاسى شدة الالم وأليم العذاب من تورم أقدامى وانشقاق لحمها وتجمد الدم عليها زارنى أحد الدراويش واعتذر لعدم مساعدته خوفا من القبض عليه وظهم انه شريكى فيما عاملوه مثلى عند ما يتشفع لى وقال انه سبق له مثل هذه الواقعة فى مبدا سلوكه وانه يعرف الدواء الذى تداوى به فاحضره ودهن أقدامى وسيقانى حتى شفيت فى مدة قصيرة وعدت الى حالتى الاصلية

وفى أثناء اعتكافى للمعالجة كنت أتدبر فى أمرى فعزمت على قيامى من مدينة مشهد لانى رأيت أنى دخلتها فى ساعة منحوسة حيث أول مرة انكسر ظهرى وثانى مرة ضربت بالسياط وعلى ذلك جمعت ماعندى من الدراهم التى كنت أخفيتها فى أحد أركان غرفتى بكل احتراس ووجدت انها تكفينى للتوجه الى طهران فعزمت على مفارقتها مع قافلة مستعدة للرحيل وقد عرضت مسئلتى هذه على الدراويش فاطبقوا عليها وزيادة على ذلك

فالدرويش صفر طلب مني أن يرافقني في السفر وقال لي السبب في ذلك هو اني أخبرت ان مشايخ مشهد لحقتهم الغيرة مني وهم يدبرون حيلة لهلاكي نظرا لازدياد تسلطي عليهم بجهلهم ولعدم قدرتي على مقاومتهم سأبحث على معيشة في جهة أخرى فاستقر رأينا على تبديل ملابسي بملابس درويش وبعد ان اشتريت قاووقا ومسطقة وجميع ما يلزم استعديت للسفر بمجرد الاشارة ولما ضجرنا من الاقامة ونحن في انتظار قيام احدى القوافل اتفقنا على أن نسلك الطريق بدون رفيق وان بدر اهمنا نستدل على الطريق ونزيل ما به من الخطرات الا اننا قبل القيام عزمنا ان نتفاءل من كتاب الشيخ السعدي فدعا الدرويش صفر بالدعوات اللازمة وفتح الكتاب وقرأ ما معناه (ان من المضاد للعقل اتخاذ الدواء بدون احتياط والسفر في طريق مجهول بدون مصاحبة احدى القوافل) فلما سمعنا هذه النصيحة سكن عقلنا وقلنا البتة من انتظار قافلة تقوم معها

وبينما أسأل من كل طرف عن قيام القافلة مررت بقابلتي مع الشيخ على قازن المكاري وكان حضوره الى مشهد ليقاول على مشال بضاعة مع أحد التجار لنقل جلود شياه بخاري الى العاصمة وبمجرد ما نظرني صاح صيحة الفرح بملاقاتي وملأ لي شيشته وناولني اياها وبعد ان قصصت عليه جميع مخاطراتي من وقت افتراقنا للآن أخبرني الآخر برحلته ثم قام مع قافلة الى اصبهان وكانت بغاله حضرت محملا بعضها بغرائر مملوءة من الفضة وبعضها محمل بجلود الشياه ومازلنا سائرين ونحن نقاسي الخوف والفزع الشديد خشية من غارات التركمان علينا حتى وصلنا الى اصبهان سالمين فلما دخلت المدينة وجدتها مملوءة من الفزع والرعب بما لمفهوم من هجوم التركمان الاخير من سرقة الخانات آنفا وانهم مازالوا لحد الآن متوجسين منهم خيفة ويعتقدون ان الاشقياء هجموا على المدينة بنحو ألف نفر وان الاهالي

قاومتهم ببأس شديد وعلى ان كربلى حسن المزين (وهو والدى) جرح بيده أحد رؤسائهم جرحا بليغا لم يتمكن منه الى الفرار لاعبشقة شديدة فلما سمعت ذلك تكتمت هذه المخاطرة عن كل انسان وخشيت من ظهور علامات تبدو على وجهى للمكارى وعند ذكر هذه الواقعة التى حصلت كنت أصعد بخارا عظيما من الدخان ليكون ساترا بين عينه ووجهى كى لا يطلع على تلك العلامات

وقد حمل المكارى بغاله من اصبهان بالاقمشة القطن والتبغ والنحاس برسم (مدينة يزد) ولما وصلها لم تمض مدة وجيزة حتى استعدت قافلة للقيام الى مشهد فقام معها وحمل بغاله باصناف من بضائع تلك المدينة واتفق على قاتر على انه من بعد توجهنا الى مشهد يصاحبنا الى طهران بشرط اذا حصل لنا تعب من المسير فهو بكل ممنونية يأذن لى وللدرويش صفر بالركوب على بغاله

﴿الفصل الثالث عشر﴾

(فى قيام الحاج بابا من مشهد وشفائه من الجبر الذى أصابه بظهره وروايته حكاية)

(قال الحاج بابا) ولما خرجت من مدينة مشهد واعتدلت الى الطريق الموصل الى طهران قبضت على قبة ردائى وهززتها كأنى كنت فى حبس وخرجت منه وصحت فى نفسى قائلا اللهم أنزل المصائب والسخط على هذه المدينة لانه لو سمع بى الحجاج العائدون فى هذا الوقت من الحج ربما كان يتأتى لى ضرر من جهتهم ولكون الدرويش صفر كان يرى مثل رأيى طابق على جميع أفكارى وكلانا كنا نهون على أنفسنا ونتشفى بالحديث ضد سكان تلك المدينة فكنت أتشفى بالنسبة لما لحقنى من الضرب والاهانة

وأما هو فبالنسبة للاضطرارات التى كابدها من الفقهاء ثم أخذ الدرويش يهدى روحى و يقول أما من جهتك أنت لازلت شابا ويلزمك مقاساة صعوبات شديدة قبل أن تكتسب المهارة اللازمة لتدربك فى أحوال معيشتك مدة حياتك فلا تضجر ولا تشتكى من أول مصيبة ولعلها تكون سببا فى موعظتك فى المستقبل فتنجو بها مما عساه أن يحصل من المصائب ولتكون متيقظا دفعة أخرى فى استكشاف الامور مثل المحتسب الذى غاب عنك حاله لما كان متبرقعا بزى امرأة ثم قبض الدرويش على لحيته وقال اما بالنسبة لرجل مثلى فى هذا السن كابد جملة مشقات فى الدنيا يجبر على السفر ثانيا فى الجهات فانها حقيقة من المصائب العظمى

فاجبته ربما كان الاحسن بقاءك فى مشهد اذا كنت اخترتها للاقامة من بين البلاد لو احتملت ولكن لو كنت مواظبا على فرائض الصلاة والوضوء لا تحدث مع المشايخ والتجأت اليهم

فقال الدرويش حقا ما قلته ولكن السبب فى ذلك هو انه لمناسبة اقتراب حلول شهر رمضان المعظم الذى فيه يراقبونى أغلب الاوقات زيادة عن خلافه ولا الى قدرة ولا رغبة للصيام لان تعاطى الدخان من الضرورى وهو عندى بمنزلة الهواء للجسم وشرب الخمر قوتى اليومى فلذا استحسنت السفر مدة هذا الشهر نظرا للانهماك المسموح به للسياحين أثناء سفرهم

وان كان يحتمل جواز غشهم كما سبق لى المرار بالاكل والتدخين خفية ولكن بالنسبة لرجل مشهور الآن مثلى يعيش بالتقوى والطهارة المظنونة الظاهرة بين الناس و يضيقون عليه بالمراقبة فلذلك لا أتمكن من اطلاق حريتى

(قال الحاج بابا) و بينما نحن نقطع الطريق بالحديث اذ وصلنا الى مدينة سمنان ولم يحصل لنا فى الطريق شئ يستحق الذكر الا انه من قبل أن نصلها

يوم أو يومين ساعدت على قارن فى تحميل احدى البغال وفى حال التحميل عادالى ألم ظهرى الاصلى فاشتد على فى الطريق حتى لم يكن لى قدرة على المسير مع القافلة فعزمت على المكث فى هذه الجهة لحين شفائى وبالاخص قد نجينا من غوائل التركمان ولم يكن أمامى صعوبات فلهذا قصدت الاستقلال بنفسى وأن لا أركن على المسير مع أى قافلة

اما الدرويش صفر المغرم بشرب الخمر والشهوات النفسانية التى هى عنده من أعظم شئ داخل المدينة استمر فى سياحته وأما أنا فلم أدخلها بل اتخذت مسكنا فى احد القبور الموجودة على اكام المدينة وألقيت فروتى فى احدى زواياه وأعلنت عن حضورى على حسب عادة الدراويش الرحالة ونفخت فى نفيرى وصحت صيحة عظيمة بصوت مطرب ومقبول قائلا (حق هو الله أكبر)

ثم حتمت رأيى باظهار الهيبة والتكرش على وجهى وعدم اللين حتى بذلك أكون أديت واجبات التعليمات التى تلقيتها فى فنون الغش فأتت لزيارتى النساء العديدة وكتبت لهن جملة طلاسم وتعاويذ وصرن يهدين لى تظير ذلك بالفاكهة واللبن والعسل وبعض أشياء

وقد اشتد فى هذه الاثناء ألم ظهرى حتى اننى سألت عما اذا كان يوجد أحد من أهالى سمنان يمكنه معالجتى من هذا الالم فلم أجد فيها الا حلاقا وبيطارا يدعيان معرفة مداواة أى مرض فالحلاق ماهر فى الفصادة وخلع الاسنان وتجبير العظام وأما البيطار فلمعرفته فى أمراض الحيوانات فكان فى غالب الاحيان يدعى لمعالجة الامراض البشرية ووجدت أيضا امرأة عجوزا سائلة الشعور الشائبة على ظهرها وكهيئة الساحرة قد أنهكها الكبر وكانت الاهالى تعتقد صلاحها ويصدقونها فى جميع الاحوال وان معلومات الحلاق والبيطار لم تذكر فى جانب معلوماتها اذ هى عندهم كالوحى وبخلاف

ماهى عليه من معرفة العلاجات السريعة ووصف الادوية فكانت تدعى معرفة جميع أنواع الآلام

فحضر كل منهم وزارنى الواحد بعد الآخر واتفق رأيهم جميعا ان الالم الحاصل لى ناشئ من تأثير البرد ومايعرفونه فهو النار التى هى أشد قوة طاردة للبرد وعلى ذلك أجمعوا آراءهم باتفاق انه لابد من سرعة استعمال الكى فى محل الالم ولكون البيطار أغلب اشتغالاته هى فى الحديد الحامى والبارد فلعلوميته بذلك قرر رأيهم بانه يكون الجراح فى عملية الكى

فاطاع الامر وأحضر مجمرة مملوءة فحما وسفافيد صغيرة وجلس فى زاوية وأولع النار ووضع عليها السفافيد لاحمائها ولما احمرت السفافيد طرحونى على الارض على وجهى ممددا وكوواظهرى باحتفال عظيم بالحديد المحمى وصار الواقفون كلما يوضع السفود على محل يصيحون ويتضرعون بقولهم (خدا شفا مدهد) يعنى الله يشفيه أما الذين كانوا متولين معالجتى فبدون أن يصلوا على النبى عليه السلام أوعلى الائمة الاثنى عشر كووني فى ثلاثة عشر موضعا حتى انه فى منتصف العملية لما زايدنى الالم واشتد بى الحال وصرت أصرخ بقوة شديدة وأستغيث من العذاب لم يتركونى حتى انتهى الكى عن آخره

ولما استمرت الجروح تؤالمنى زمنا طويلا بدون ان تلتئم وانا اقاسى شدة الالم ربعقلى أن شفائى لايكون الا باعتكافى أياما فى غرفتى فمكثت فيها مدة أيام طوال بدون ان أبرح منها لحظة وفى آخر هذه المدة التأم جرح فخاصرتى وزالت أوجاعى وعادت القوة فى جميع أعصابى فحمدت الله وشكرته على ما أولانى

(قال) وان كان المعلوم ان شفائى منسوب للثلاثة عشر كيا التى هى أصل العملية وزاد اعتقاد جميع أهل المدينة فى تأثير الحديد المحمى زيادة عما

كانوا يعتقدون ولكني لازلت اتفكر ان أسباب شفائي ناشئة بالاكثر من راحتي زمانا طويلا وكانت هذه الطبيب الوحيد لمداواتي فكتمت هذا الرأي في نفسي لان الاهالي عموما كانت تعتقد بلاريب أني كنت محفوظا بالاولياء والاتقياء وانهم الواسطة في شفائي

ثم عزمت على الرحيل في الوقت الى طهران ولكن قبل قيامي تجاسرت ان أظهر نفسي في هذه الساحة بهيئة الدرويش واجتهدت في تجربة قريحتي لسرد حكاية في مجمع من أهالي سمنان وعلى ذلك تمشيت الى جهة مدخل المدينة ووقفت في ميدان متسع يقرب من الاسواق يجتمع فيه كسالى البلد وقت الظهر وصحت بالصيحات العادية لمثل ذلك فازدحم الناس حولي في وقت يسير واحاطوا بي على شكل حلقة وجلسوا على الارض ليسمعوا روايتي المشتملة على حكاية حلاق سمعتها لما كنت في هذه الحرفة ومن حسن حظي أنت بفكري في هذا الوقت ثم وقفت في وسط حلقة هؤلاء الهمج وهم يرمقون الي بالاعين و يفتحون أفواههم وابتدأت بما هو آت

(حكي) انه كان موجودا ببغداد في زمن الخليفة هرون الرشيد حلاق اسمه علي سقال ماهر مشهور في خفة يده في هذه الصناعة حتى قيل انه يحلق الرأس و يساوي الشارب واللحية وعيناه مقفولتان بدون أن يجرح الجلد أو تنزل نقطة دم ولم يبق رجل ببغداد بهذه الحالة الا وحلق عنده فلما تكاثرت عليه الناس ورأى ماهو عليه من الشهرة بخلاف ما استحوذ عليه من الاموال العظيمة تكبر وتفطرس وكاد ان لا يحلق رأسا لم يكن صاحبها بيكا أو آغا

ولكون حطب الحريق غاليا ونادر الوجود في بغداد وكانه تحرق مبلغا وافرا منه فكانت الحطابة تجلب أحمال الحطب اليه أولا لوثوقهم ببيعه بالنقد حالا في أغلب الاحيان وقد تصادف ذات يوم ان أحد الحطابة

المساكين مستجد فى هذه الحرفة وكان يجهل خصال على سقال فذهب بحمله الى دكانه وقدم له الحطب الذى احتطبه من مسافة بعيدة من الريف على حماره فقطع معه الحلاق الثمن وقال له ان الانفصال على جميع الحمل على الحمار فقبل الحطاب ذلك والقى الحمل من فوق حماره وطلب الثمن فاجابه الحلاق ان الاتفاق كان على جميع الحمل فيلزمنى ان آخذ غبيط حمارك الذى أغلبه من الحطب حسب اتفاقنا فقال الحطاب كيف وقد أخذه الاندهاش الكلى انى لم أسمع ولا خلافى بسواق كهذا مطلقا ويستحيل اجابة طلبك

وبالاختصار بعد حصول مناقشات جسيمة ونزاع مهول قبض الحلاق على الغبيط والحطب وكل شئ وطرد الفلاح المسكين وهو فى غاية الضيق والكرب فتوجه لوقته الى القاضى وبث له مصائبه ولكون القاضى من زباين الحلاق فلم يصغ لدعوته فتوجه للحاكم أعلى منه وشكاه فعضد أيضا على سقال وطابق على الدعوة فالتزم بالعرض على المفتى نفسه فبعد أن أمعن وتأمل فى المسئلة انتهت أخيرا بقوله ان هذه القضية يصعب عليه جدا الحكم فيها لعدم وجود نص لها فى القرآن الشريف ولذلك أخبره باستحسان صرف النظر عن هذه القضية

فلما سمع الحطاب كلام المفتى لم يدخله الخوف بل شد عزمه وخرج مسرعا لساعته وأحضر كاتبا وكتب له عرضحالا يتظلم فيه ويبث دعواه للخليفة نفسه وأعرضه اليه فى الطريق يوم الجمعة حال ذهابه الى الجامع وكان الخليفة مشهورا بالرأفة والحلم وطول البال فى قراءة العرضحالات ولم يمر زمن طويل الا واستدعى الحطاب بالحضور أمامه فلما اقترب من الخليفة جثا على ركبتيه وقبل الارض بين يديه ثم وقف امامه واضعا يديه بالطول على جانبه مسبولا عليهما أكمامهما الاصقا قدميه بعضهما ببعض منتظرا

مايصدر به الحكم فى ظلامته
فقال له الخليفة أيها الرجل ان كلام الحلاق فى محله بالنسبة لنفسه واما أنت فبيدك الحق فى دعواك ولكن الشرع لا يحكم الا بالالفاظ وان الشروط تثبت بمجرد الكلام ولا بد من أن الشرع يجرى مجراه والا فيبطل وعلى ذلك يلزم تأييد الشروط والا فيضيع الصدق والايمان بين الرجل وأخيه وبناء على هذا كله فللحلاق الحق فى حفظ جميع الحطب ولكن سأنظر فى أمرك ثم قربه اليه وساره فى اذنه بكلام لا يسمعه خلافه وأمره بالخروج فخرج وهو مسرور الخاطر
(قال الحاج بابا) فلما وصلت الى هنا قطعت الكلام وأخرجت وعاء من الصفيح وأمسكته بيدى ومددته وقلت الآن (أيها السادة الكرام) اذا أعطيتمونى شيأ من الاحسان فاقص عليكم ماقاله الخليفة للحطاب فهاجت الناس وتعجبت وتشوقت لسماع باقى الحكاية فصاروا يعطونى قطعا من النقود ولم يتأخر منهم الا النذر القليل فجمعت الدراهم ووضعتها فى جيبى وقلت (اسمعوا يا أسيادى)
وبعد ان سار الخليفة الحطاب بما يجريه لحصوله على ترضيته من الحلاق فأخبركم بما حصل له وهو ان الحطاب قبل الارض بين يديه وعاد لحماره وجره من مجره وتوجه لحال سبيله قاصدا بلده وبعد مضى بضعة أيام عاد الفلاح الى الحلاق ومعه حماره وتداول معه كأنه لم يكن فى النفس شئ مما سبق وترجاه وقال له انه حضر مع أحد أصحابه من البلد وكلاهما يرغب التمتع بما اشتهر به من مهارة يده فى هذه الصنعة فلما اتفق معه على اجرة الحلاقة اليهما حلق للحطاب ثم قال له وأين رفيقك فأجابه أنه واقف فى الخارج وسيحضر حالا ما دمت خرج وعاد يجر الحمار خلفه وقال له الحطاب ها هو رفيقى فالبتة من ان تحلق له فصاح الحلاق وقد أخذ منه

العجب كل مأخذ وقال كيف أحلق للحمار أما كفى بانى رضيت بان أدنى نفسى بلسك وهل تشتمنى وتستهزئ بى بسؤالك حلاقة حمارك خذه واذهب من ههنا والا أرسلك معه الى جهنم وأسرع الحلاق بطرده مع حماره من الدكان فتوجه الخطاب فى الحال للخليفة بعد ان ربط حماره فى جهة واستأذن فى الدخول عليه فأذن له بالحضور فلما تمثل فى حضرته عرض للخليفة حكايته

فعجب الامر أمير المؤمنين ونادى لاحد قواده وأمره باحضار على سقال الحلاق ومعه عدة أمواسه فى الحال فاحضر عشرة دقائق حتى احضروا الحلاق وأوقفوه امامه

فقال له أمير المؤمنين لماذا لا تحلق لرفيق هذا الرجل حسب الشروط التى بينكما فقبل الارض بين يديه وقال حقا يا أمير المؤمنين قد اشترطنا ذلك ولكن من يدعى فى المدة السابقة بمرافقة الحمار أو من اتخذ من المتقدمين الحمار صديقا فاجابه الخليفة قد صدقت فى المقال ولكن هل يظن ان الانسان يصمم رأيه بأخذ غبيط الحمار لاحتوائها على الحطب ضمن حمله فارجع عما أنت عليه الآن فالحق يسد الحطاب ولا بد أن تحلق للحمار والا فستري ما يأتيك من المضار

فانجبر الحلاق رغم أنفه بطاعة أمر الخليفة وأخذ يجهز الصابون لتليين وغسيل الحمار من رأسه لاقدامه ليحلق له امام الخليفة وجميع معيته وكان الحاضرون يزدرون به ويتمسخرون عليه بالضحك ومعاريته على حلق الحمار وبعد ان انتهى الحلاق أمر الخليفة بانصراف الخطاب مع حماره بعد ان أحسن عليه بمبلغ معلوم من الدراهم وصارت أهل بغداد تتحدث بهذه الحكاية على ممر الدهور وتترنم بما كان من عدل أمير المؤمنين

﴿الفصل الرابع عشر﴾

﴿فى الكلام على الرجل الذى يقابله الحاج بابا فى الطريق ونتيجة الملاقاة﴾

(قال الحاج بابا) ثم انى قمت من سمنان مشروح القلب والصدر بارئا من السقام وآلام الظهر وكنت وقتئذ شابا جميل المنظر وكان باقيا فى كيسى عشرون تومانا من الذهب وذلك مقدار ما توفر عندى فى مدينة مشهد لما اقتصدت فى المصروف كما علمتنى تجارب الزمان وعزمت على انى فى حال وصولى طهران أخلع سمة الدراويش عنى وألبس لبسا نظيفا من الرأس للقدم واجتهد بواسطة بذل أموالى فى الحصول على درجة احسن مما كنت فيها للتعيش منها ولكن قبل ان أصل الى طهران بمسافة يوم تقريبا وأنا سائر فى الطريق أترنم وأغنى بقدر ما يمكنى من علو صوتى بابيات غزلية عن ليلى والمجنون اذ فاجئنى رسول وأتى نحوى وبعد ان تحدث معى قليلا عزم على بان آكل معه من بعض مأكولات استحضرها صحبته ولكون حرارة الشمس تسلطت بقوة على جسمى فلما حتى قبلت عزومته بكل ممنونية وجلسنا بجانب نهر صغير بجوار غيط مزدرع بالحبوب وأخرج الرسول اللجام من فم حصانه وأشار اليه بالاكل من الغلال المغروسة ثم أخرج من جيب خرجه منديلا كبيرا ملفوفا به جملة قطع من الارز المفلفل البارد وثلاثة أو أربعة لفات من الخبز ونشره أمامنا وسكب أيضا من كيس كان معلقا على قصعة سرجه فى وعاء جزأ من اللبن الرائب وأخرج من عين الخرج الموضوع فيها نعاله ومؤنة التبغ وكأسا للشرب ستة بصلات ناشفة وأضافها على المائدة وأكلنا بكل اشتهاء ولذة حتى انتهى الطعام من قدامنا بغاية السرعة فصرنا نلعق أصابعنا نفكها آسفين على انتهائه

ثم قنا وغسلنا الاوعية من النهر ومكث كل منا يتفكر فى سؤال رفيقه عن موضوع سفريته المنوط بها وكان رأى من هيئة ملبوسى أنى درويش فقصصت عليه حكايتى أولا وأما هو فاخبرانه من ضمن نجاب محافظ مدينة استراباد ولزيادة سروري وتعجبي كان حاملا الخبر السار باطلاق سبيل صاحبي الاول الشيخ عسكر شاعر الشاه من أسر التركمان ولكنى لم أظهر للرسول معلوميتى وفرحي بهذه الرسالة لان التجارب علمتنى ان من الحكمة التمسك بنصيحة الغير فى الاحوال المختصة بالمعيشة ولذلك تجهلت هذه المسئلة وتنكرت معرفتى بوجود مثل هذا الرجل وقد أخبرنى هذا الرفيق انه اجتهد فى مجيئه الى استراباد بكل أمان الا أنه لم يمتلك أدنى شئ وان المحافظ أرسله بهذه الرسالة ليبشر عائلته بسلامته ويخبرهم بمستقره وأخرج الجوابات الموكل بها من صدره ملفوفة فى محرمة ليريها لى ولكونه شابا يميل للوقوف والاستقصاء على كل أمر وان كان لا يدرى القراءة فانسر لمقابلته مع رجل ذى دراية فى الكتابة والقراءة يوقفه على مكنونات الجوابات

فاخذت الجواب الاول وفحصته فوجدته تفكرة من الشاعر الى ملك الملوك مكتوبا باعظم وأتقن الالفاظ الشعرية يذكر فيه ما أصابه من النوائب وأنواع العذاب التى قاساها من ابتداء ما وقع فى ايدى التركمان وقال من ضمنه ان الجوع والظمأ وما كابده من المعاملة الوحشية وشدة العناء لا تساوى ذرة ولا تذكر بجانب حرمانى من نشر يتى بجامعة الكرم والجود والحضرة المتلألئة والجوهرة الملوكية درة البهاء والافتخار وخلاصة فضل الانام ملك الملوك الاعظم وبما أن أردأ حيوان يدب مسموح له بالتمتع بحرارة الشمس الجليلة فبالمثل هو من أدنى وأقل رعايا الملك يلتمس ولو مرة بالتشمس فى شعاع شمس جنابه الملوكى

ثم انتهى باظهار الخضوع والعبودية ملتمسا من الملك انه يؤمل بان غيابه

هذه المدة لا يحرمه من تشريفه بظل أسرته وانه متلهف لعودته ثانيا لوظيفته السابقة في خدمة جلالته وقد ضمن هذا الجواب الكاتب الفاضل والاديب الكامل بقوله

حث المطى الى ذرا شمس العلا * ملك الملوك الاوحد بن الاوحد
أو ما ترى الوزراء في ايوانه * ضاءت وجوها مثل ضوء الفرقد
ملك اذا ابتسمت ساحة فضله * لغدوت في ريعان عيش أرغد
أقسمت ما كابدته في الاسر من * سغب ومن ظمأ وخطب أنكد
ما كان يبلغ عشر ما قاسيت من * ألم الفراق عن المليك الامجد
تاج الفخار ودرة الملك التي * تعلو النجوم بضوئها المتوقد
من لي بان أحظى بايسر لفتة * منه فاظفر بالرجاء الاسعد
اني على ثقة باحسانه * وأجلها في النفس تقبيل اليد
ما خفت شفة امرئ الا اغتدى * شرفا تصافحه يمين السودد
فعسى المليك يعيد لي لوظيفتي * كرما فالحق في عداد الاعبد

أما الجواب الثاني فكان بعنوان الصدر الاعظم ووصف هذا الوزير المشهور الهرم سيئ السلوك المشهود له بالوقاحة وعدم الانسانية بانه كوكب سيار ذو ذنب بين النجوم وجعله أيضا الملجأ المعول عليه والذي يرتكن اليه في المملكة ثم عرض له الشاعر حكايته وطلب منه الدخول تحت لوائه وحمايته ليتوسط له عند الملك في بقاء وظيفته

ثم وجدت جوابا بهذا المضمون تقريبا باسم عدوه القديم وهو الخزندار الاعظم وبحثت في الجوابات التي برسم عائلته فوجدت خطابا باسم زوجته وآخر باسم خوجة ابنه وجوابا ثالثا برسم وكيل دائرته

أما جواب زوجته فيتكلم فيه عن الترتيبات الداخلية التي في الاندرون وأراها انه يؤمل منها تدبيرها في الاكل واللبس وتحفظها على الجواري

بغاية الاعتناء وأمرها أن تتهيأ مع جواريها فى تفصيل ملبوسات اليه لتجرده من جميع الادوات والملبوسات

وأما جواب الخوجة فاوصاه بان يدبر التفاته المكلى نحو أحوال وسلوك ابنه وتعشم بحسن تربيته وتعليمه فنون الادب والانغام والتحية وانه لا يترك فروض الصلاة ولعله فى هذا الوقت وصل الى الدرجة التى يمكنه فيها أن يركب حصانا واستعد فى فنون ضرب الحراب وطلق البندقية مصيبا وهو على آخر سرع من الرماحة

وأما جواب وكيله فذكر له تعليمات عمومية مختصة بمصالح أشغاله وأوصاه بالوفر والتدبير وان يتوجه يومى للصدر الاعظم ويمدحه مدحا زائدا حتى يعليه للسموات السبع ويسعى بكل همة ونشاط لازدياد ثروته وسعادته وأن يلتى باله ويتحفظ بكل دقة على نسائه وعبيده ويمنع زوجته عن الاكثار من التوجه الى الحمام واذا خرجت مع جواريها للنزهة وشم الهواء فلا يتركهن بمفردهن بل يصاحبهن طين عودتهن من الفسحة

ثم قال له انه يؤمل من حسن التفاته منع النساء المؤامرات الحاملات جراب الحيلة خصوصا اليهود من دخولهن داخل باب حرمه وان تكون الحيطان والاسوار المحيطة بمساكن حرمه حصينة ومتينة وغاية فى الانتظام لكى يمتنعن عن الزحف الى الجيران من سطح المنزل وأمره أيضا بانه لا يسمح الى عبده جوهر الاسود من الآن بالدخول الى الاندرون وانه اذا تبالغ اتحاده مع بعض الجوارى أو مسامرته معهن فيجرى ضربه وضربهن بالكرباج ثم أمره أخيرا باعطاء حامل هذه الرسائل مكافأة عظيمة جزاء حمله هذه البشرى السارة لعائلته

(قال الحاج بابا) وبعد ان قرأت هذه الجوابات ووقفت على ما فيها من المشتملات لففتها كما كانت ووضعت ما كان مختوما عليه فى ملفه المختوم ثم

ناولتها للرسول الذى تعشم انه سينال مبلغا وافرا مكافأة له نظير حمله أول بشرى مؤذنة بسلامة الشاعر وأخبرنى انه لخوفه من ان يسبقه أحد فكان يسير ليلا ونهارا وقال ان الحصان الذى يركبه الآن ملك لاحد الفلاحين اغتصبه منه أثناء الطريق وترك له حصانه بدلا عنه لضعفه وان الفلاح متتبعه بتخلاص حصانه

فبعد ان فرغ الرسول من حديثه غلب عليه التعب بقوة شديدة حتى أخذه النوم واستغرق فيه كل الاستغراق وبمجرد اضطجاعه على الحشيش مكثت أنظر اليه وابتدأت أن أتأمل وأتبصر فى أسهل طريقة للتزود برسالته وهو فى غريق غفلته

ولكونى فى نفس الامر خبيرا بواقعة الشاعر وغير ذلك قد أضاء فكرى بزيادة تحقيقها بهذه الادلة والبراهين فلهذا خولت لى الحق بان أكون أول مبشر بهذه الرسالة وأما الحصان فكما انه يخصه فكذلك يخصنى زيادة عنه لانه لا يملكه سيما وسأكون أول رسول بما ان الفلاح متتبعه الآن بحصانه الاصلى وعلى ذلك فقمت منديل الجوابات الذى ما زال فى حضنه وأخذت منه جواب وكيل الشاعر وعلوت الحصان وغمزته فى جانبيه بالمهموز فرمح بى وكاد ان يسبق الهواء حتى انى فى برهة يسيرة قطعت مسافة طويلة تارك النائم خلفى واجتهدت فى السير بنجاح عظيم قاصد طهران

وبمجرد ما استطيت الحصان تأملت فى أسهل طريق أسلكه وتدبرت فى أحسن طريقة أتوسط بها الاتصالى بعائلة الشاعر وأثبت فى عقلهم هذا الخبر لكى يصدقونى وأتحصل بذلك على المكافأة التى كانت من نصيب الرسول قبل وصوله لانى حسبت انى أسبقه على الاقل بمسافة يوم بما انه بعد تيقظه من النوم يلزمه السير على قدميه مسافة حتى يتيسر له الحصول على حصان آخر ان لم يتحصل على حصانه الاصلى الذى كان على شك عظيم

من حضوره اليه ولو فرض ومشى على قدميه فيلزمه مدة أيام وقل أن يصدقه واحد فى المائة لانه يحتمل ان لا يعيره أحد بهما ركوبه عليه هذه المسافة

أما أنا فقصدت بحال وصولى مدينة طهران أبيع الحصان وعدته جميعها على قدر ما يساوى فى المزاد ثم اغير ملابس الدراويش بملبوسات أهل الريف العادية وأرهدل نفسى على هيئة انسان حضر من سفر بعيد وأتوجه لمنزل الشاعر وأقف على الباب وهنالك أقص الحكاية باحسن ما يمكنى بعذوبة الالفاظ وطريقة سهلة الفهم وابين لهم معرفتى جيدا ووقوفى على جميع أحواله المختصة به التى بها يصدقونى

﴿الفصل الخامس عشر﴾

﴿فى وصول الحاج بابا مدينة طهران وتوجهه الى منزل الشاعر﴾

فدخلت مدينة طهران عند شروق الشمس من بوابة الشاه عبد العظيم وقت فتحها وفى الحال عرضت حصانى للبيع فى السوق المنصوب يومى لهذا القصد بعد ان برهنت على جودته وشدة سرعته فى المسير من جنس الرماحة التى حضرت بها من وقت تركى للرسول ولكن اخبرنى دلال الخيل بعد ان كشف عليه جليا انه مملوء من العيوب الكثيرة وبذلك قلت فى ضميرى أكون سعيدا لو أتحصل على أى قيمة يباع بها

وكان محجلا من أحد ساقيه وذا اشارة بيضاء على انفه وكلاهما مكروه ومبخوس القيمة عند الاعاجم سيما وكان طاعنا فى السن أسود الاسنان وقد ظهر بالاختصار ان كل صفة موصوف بها لا يلزم وجودها فى الخيل ولذا دهشت عند تقديمه لى خمسة طومان قيمة ثمنه بشرط ان أترك اللجام

والسرج ضمن المسواق وقد أخذه العجب أيضا لاطاعتى له من أول كلمة وقبول ماقدمه فدفع لى نصف القيمة نقدا واعطانى حمارا أهلكه الجوع قيمة النصف الباقى فرفضت هذا الطلب فوعدنى بدفعه نقدا عند المقابلة ثانيا وبما انى كنت فى غاية من العجلة الزائدة التى لا تبيح لى استمرار المسواق ذهبت عاجلا الى السوق واشتريت قاووقا اسود وخلعت طرطور الدروشة ولبسته فلما هيئت نفسى بهيئة رجل مسافر آت من بلدان بعيدة اعتدلت لطريقى المؤدى لمنزل الشاعر حيث وجدته كائنا فى مربع بهيج داخل المدينة وحوله البساتين المملوءة من أشجار الفاكهة وعلى شارع ممتد بجانبه خليج محاط بأشجار الصنوبر من الجهتين الا انه حقيقة يرى على المنزل دلائل الحزن وتحدثه بغيبوبة سيده ولسان حاله يقول

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا * أخنى عليها الذى أخنى على لبد

وكانت بوابته نصفها مفتوحا ولا دبيب يدب حوله ولا صوت آدمى فى حوشه فلما دخلت وسطه لم أر فيه أحدا حتى وقفت بعد التأمل الزائد على قرائن اتضح منها وجود رجل يسكنه فضعف عزمى وقلت ان ذلك اشارة لعدم حصولى على مكافأة موعود بها

فاتجهت أخيرا لمحل عال كائنا فوق البوابة فوجدت فيه رجلا يبلغ من السن خمسين سنة تقريبا جالسا على بساط يشرب فى شيشته فتحققت من هيئته بانه هو نفس الرجل الذى أبحت عنه أى الوكيل فصحت فى الحال بشرى بشرى الخان آت فقال (يكى شاه) الشاه الجديد ماذا تعنى أى خان وأين ومتى فلما بثثت له حالتى وقدمت له رسالتى التى باسمه ففضها وقرأها بوقوفه على ما احتوته وجدته ارتبك فى أمره وذهل عقله وامتزج بالفرح والحزن مما دهاه وقال لى احمق أنت بحياة الخان فاجبته انى فى غاية التحقيق من ذلك وسيأتيك رسول فى مساء الغد يحدثك بجملة أخبار ويطمئنك زيادة

عن سلامته حاملا خطابات للملك والوزراء وغيرهم فلما سمع كلامي وتحقق صدق مقالي صاح صياحات متقطعة وتأوهات متنوعة حتى كاد يلحقه الجنون ويخاطب نفسه ويقول

يا للعجب من هذا الشغل الغريب الذي ما كان يظن حصوله بفكر اللبيب وانها الداهية دهماء أوجبت لنا العار واسقطت على رؤسنا الغبار وسودت منا الوجوه وتعقبتنا بكل مكروه فأين نذهب وماذا نفعل

فلما فرغ من لهجته وفاق نوعا من سكرته اجتهدت في تعقيبه بان أسأله عن ايضاحات ما أبداه من الصيحات المزعجة المتسببة من هذه المسئلة ويخبرني عن سبب غضبه ودواعي كربته الظاهرة مع انه كان الواجب في مثل هذه المسئلة اظهار الفرح والسرور فمع هذا كله ما كنت اسمع منه الا قوله

لابد وانه توفي كل انسان يقول انه توفي وأن زوجته رأت مناما أنها فقدت ضرسها الكبير الذي كان يؤلمها ويستدل من تفسيره انه توفي وبخلاف ذلك فان الملك قرر رأيه على ذلك فخاشاه أن يكون حيا ولا يتأتى انه على قيد الحياة

فقلت أيها الوكيل لو سلمنا انه مات فلنفرض انه من أهل الكرامة والناس الصالحين وقد حضر ثانيا الى مدينة استرابادمن ستة أيام وانه سيثبت حالا ذلك بشخصه باظهار نفسه في طهران اثناء الاسبوع الآتي

وبعد ان مكث الناظر متفكرا ويتعجب هنيهة لهذا الامر قال لي لا تندهش من حيرتي مالم أخبرك عما حدث هنا من النوادر التي أعقبت خبر وفاة سيدي وهو ان أول أمر لما تحقق وفاة سيدي حجز الملك على جميع أمتعته وأمابيته وما فيه من الفروشات والخدم ومن ضمنهم الجواري الجرجانية فأنعم بها على خور علي ميرزا وهو أصغر أولاد الملك وأما بلده وما فيها من الاطيان الزراعية فامتلكها الوزير الاول وأما وظيفته فعما قريب يتعين

فيها ميراز فضول والذى هو أعظم من هذا وذاك هو أن زوجته تزوجت بخوجة ابنه فأخبرنى الآن بعد ذلك كله أيحق لى أن أندهش أم لا

فلما سمعت كلامه وافقته على أحقيته بما وقع منه الا اننى سألته بوقتها عما يكون نحو مكافاتى فأجابنى الناظر قائلا (آه) أما من هذا الخصوص فلا تنتظر منى شيأ لانك لم تأتنى بأخبار سارة ولكن اطلبها من سيدى عند حضوره اذا رغبت وأما أنا فلا أعطيك شيأ

فلما كررت عليه اوعدنى بالحضور فى أحد الايام وعلى ذلك تركته غريقا فى تأملاته الخصوصية وخرجت من المنزل لحال سبيلى

﴿الفصل السادس عشر﴾

﴿فى تحيل الحاج بابا على طرائق لمستقبله ووقوعه فى مشاجره﴾

ثم اننى عزمت على انتظار وصول الشاه روان اجتهد بواسطته للحصول على وظيفة أستخدم فيها حتى أتكسب مؤنتى بكل شرف وأترقب أى فرصة تكون سببا فى ازدياد معيشتى وان لا أستعمل مسائل الحيل والغش التى تعودت عليها لما أصابنى من النصب لمراعاة الوضيع والقبيح لانى شاهدت جملة أمثال امامى من الرجال الذين اجتهدوا فى رفع درجاتهم فى الدنيا يعلقون آمالهم بطلب المال والشرف وان منهم من كان مجهول الاصل مثلى وبوقتها اشتغل فكرى بشؤون الترقى حتى انه قر بعقلى حالة ساوكى عندما أبلغ درجة وزير أول

ثم خاطبت نفسى وقلت ومن هو ومن يكون اسمعيل بك تالى أكبر محبوب وجليس للشاه أليس هو الافراشا وانه ليس أجمل منى ولا متكلما عنى ولو كان هناك فرصة يمكننى فيها مضاهاة فروسيتنا فى ركوب الخيل فعلى ظنى

ان الرجل الذى تربى بين التركمان يرى حركات الركوب وكيف تكون حالتها بما هو عليه من الشهرة العظيمة

وكذلك من هو الخزندار الاعظم الذى يملأ خزائن الملك بأنواع الذهب ومن ذا الذى يجهل أصله ونسبه وحرفته فى صغره ما هو الا ابن خضرى وابن الخضرى والمزين حالة واحدة بالنسبة لاحوالنا الشخصية بل أنا أحسن منه لمعرفتى بالقراءة والكتابة وأما سعادته كما ينقل عنه لا يدرى شيأ من ذلك ويأكل ما يشتهى ويلبس كل يوم رداء جديدا وهو الشخص الثانى بعد الشاه يتلذذ بجميع محاسن العجم ومع كل هذا وهذا أسمع جميع الناس تتحدث بجهله وعدم معرفته شيأ وانهم يعتقدون انه لا يزيد عن (خورى تشديد) حمار كثير النهيق

ومازلت أتلبس بجلباب التخيلات وأجول فى بحار التصورات وأنا متكئ بظهرى على حائط أحد الشوارع المزدحمة الذى يؤدى الى بوابة السراية الملوكية وأشغلت الافكار فى أسباب عظم مستقبلى حتى اذا استفززت للقيام وأردت المشى هجمت فى الزحام وفرقت الجموع بقوة ليخلوا الى الطريق وكنت أتخيل فى نفسى ان هذا أمر يجب عليهم اجراؤه فالبعض نظر لى شذرا والبعض هجانى والبعض ظن أننى مجنون

وحقيقة لما عاد لى عقلى وتأملت فى ملابسى الرثة ورأيت ان هيئتى كهيئة السائلين للصدقة لم أملك نفسى من شدة التبسم على تعجبهم وذهولى فذهبت قاصدا سوق الملبوسات عازما على شراء رداء مناسب ليكون ذلك أول خطوة نحو تغيير هيئتى لمعيشة أخرى

وبينما أنا سائر فى الزحام صادفت فى طريق مشاجرة عنيفة بين ثلاثة رجال يسبون بعضهم بالفاظ قبيحة خارقة للعادة فولجت داخل الحلقة المحيطة بهم للفرجة عليهم فلفضيحتى رأيت الرسول الذى غششته وخنته مع الفلاح

يتهجمان على دلال الخيل ووجدتهما تمكنا من اغتصاب الحصان الذى
بعته له والفلاح يقول هذا حصانى والساعى يقول هذا سرجى ودلال الخيل
يصيح و يقول الحصان والسرج تعلق فلما علمت بوقتها ان هذه المسئلة تعسنى
وانى قريب من الوقوع فى الخطر وأردت الانسلال من هذه الورطة تحنى
الدلال وما أدرى الا وقبض على منطقتى وقال ها هو الرجل الذى اشتريت
منه الحصان

و بمجرد ما عرفنى الرسول ففى الحال انقلبت شدة هياج المشاجرة على مثل
الصاعقة حتى كادت رأسى تشق وعادت على حدتها وصعوبتها بالمسبات وما
كان يقطع بآذانى الا بكونهم يلقبونى قائلين يا ابن الزنا يا ابن الحرام يا حرامى
ياغشاش بدون ان تاخذهم فى ذلك شفقة فكان الواحد يصيح قائلا أين
حصانى والآخر يصرخ بقوله اعطنى سرجى والثالث يزمر ويصيح قائلا ردلى
دراهمى والحلقة تقول ارفعوه للقاضى فصرت عند ذلك وصرت أردد
نظرى فى الوجود لطلب العفو فلم أجد لنجاتى مخلصا ولا لقوس الرجا منزعا
وكنت تارة أصيح وأقسم لهم بانى لا أعرفهم وتارة أدافع بقوة عن نفسى
وأخرى أتملق اليهم وأريهم اللين والرقة للمسالمة والمصالحة واستمريت على
هذا المنوال مدة عشرة دقائق فى أول الامر ولم أسمع أحدا الا ويبدى حزنه
وأسفه على هذه الحالة فان غضب الرسول كان شديدا ولم يهد أله خاطرا ما
الفلاح فكان يبث شكواه مما نزل به من الظلم وعدم الانصاف واما الدلال
فكان يدعونى بكل لقب ذميم لسلبى دراهمه فمن تحيرى صرت أتحدث مع
الاول وأتملق للثانى وألاطفه وأعنف الثالث وأتوعده فكنت أقول
للرسول ما هذا الغضب العظيم ان كان لسرجك فها هو سليم ولم يمسه ضرر
ولا حاجة لك غير ذلك وأصيح على الفلاح قائلا اقصر لسانك لانك لو وجدت
حصانك بالفعل قتيلا لكان لك الحق فى الكلام فخذه واذهب لحال سبيلك

واشكر الله على وجوده سليما واما الدلال فكنت أسبه واعزره وأشتمه بقدر مايمكنني بحالة حدة رجل فار بشدة الغضب على حصول غش فى أمتعته وخاطبته قائلا مستهزئا

حقيقة لك الحق فى التكلم بهذه الالفاظ لما حصل لك من الغش مع كونك تعلم لهذه الدقيقة انك لم تدفع لى الا نصف ثمن الحصان وانك كنت تريد ان تخدعنى وتغشنى بحمار مقطوع النفس لا يساوى شيأ قيمة النصف الآخر ثم انى أردت استرداد الدراهم اليه ولكنه أبى ذلك مالم أدفع له قيمة أجرة حفظ الحصان فنشا من ذلك مشاجرة أخرى فاقت الادلة والبراهين من كل طرف فلم يقتنع أحدهم وبناء على ذلك اتفقنا فى الحال على التوجه الى (الدروجا) أحد ضباط المستحفظين ونبث دعوانا امامه فيحكم بيننا ويقطع نزاع المشكل فتوجهنا اليه فوجدناه فى مستقره الكائن فى السوق بين أربعة مفارق وحوله المستحفظون ممسكون شماريخ طوالا مستجهزة للضرب على أول واحد مذنب فتمثلت امامه وقصصت عليه جميع المسئلة ومحتوياتها وكررت مع غاية التوضيح بكل نشاط ما أبداه الدلال من الغش الظاهر للعيان فعند ذلك أجابنى الدلال وأرانى ان مادام الحصان لم يكن ملكا له بل مسروقا من شخص آخر فلا يكون لصاحبه الاصلى الحق فى دفع قيمة حراسته وألزمنى بالاجرة

فلما أعيت هذه القضية الضابط للفصل فيها الاختلاف أقوالنا وعدم مصادقتنا وكان على قرب لاحالتها على ديوان القاضى فاعترضه شيخ هرم كان واقفا بجانبنا وقال ما هذه الاهمية والصعوبات التى تظهرونها فى حل مسئلة سهلة فعند ما يدفع الدلال نصف الثمن الباقى فالحاجى حينئذ يدفع أجرة حراسة الحصان المدة التى كان موجودا تحت يد الدلال وبذلك ينتهى الامر فصاح كل من الحضور وقال للشيخ (بارك الله بارك الله) وجميعهم تعجبوا من

عدل الشيخ واستحسنوا حكمه سواء كان حقا أو باطلا وعلى ذلك فض الضابط الجلسة وأمر فانذهب بسلام

فمن وقتها لم أتاخر لحظة فى استرداد نصف ثمن الحصان للدلال وتحصلت منه على سند باستلامه جميع المبلغ وذلك بعد ان مكث يتامل فى كيفية هذا الحكم المبنى على غير وجه حق وظهرت حيرته وارتباكه فى السبب الموجب بالزامه بدفع أجرة حراسة الحصان مادام ليس ملكاله سواء كان دفع لى نصف الثمن أو الثمن بتمامه وتحقق غشه فى قبول هذا الحكم ومن حسن بختى حول غضبه عنى وصار يلوم الضابط وينسبه للخبول وقال ان الانسان الذى لم يكن له معرفة ويتداخل فى مسائل الشرع فبالمثل لم يكن له حق فى دعواه بالعفة والشرف

﴿الفصل السابع عشر﴾

﴿الحاج بابا يلبس رداء جديدا ويتوجه الحمام ويظهر فى كسم جديد﴾

(قال الحاج بابا) فشكرت الله الآن لخلاصى من هذه المسئلة المذكورة التى جلبتها بنفسى على رأسى وهنيت نفسى على نجاتى بدفع مبلغ يسير ثم عمدت ثانيا الى سوق الملبوسات وتوجهت الى أول دكان فى أول البوابة وسألت عن ثمن الجوخ الاحمر لتفصيله بارونى (برنس) مؤملا انه ينقل الى الاعتبار والهيئة التى أراها على الذين يرتدون به فلما نظر التاجر الطلبى وهيئتى قال لى محتقرا أتريد حقيقة اعمال بارونى فلمن تشتريه ومن ذا الذى يدفع ثمنه فاجبته تحقق انى اشتريه لنفسى ولبسى

فقال وما الداعى لرجل حقير فقير يريد لبس هذا البرنس فلا يلبسه الا الحائزون لقصب رزا والناس ذوو الوقار والاعتبار وأنا على يقين انك

لست

لست من أحد الفريقين ولا ذا هيئة بل من أقل الناس قدرا واحتقارا
فلما أردت الرد عليه بغضب شديد مر بجانبي دلال حامل ملابس مستعملة
من كل نوع ينادي عليها للمبيع ففي الحال دعوته وتركت التاجر ومجادلته
فلما نظر لي بهذه الحالة نادا لي مرارا فلم أجبه بل تركته يتندم على سرعة
طردي بهذه الكيفية بدون وجه حق وأخذت الدلال وتأخرنا لمحل جهة
باب مجاور الجامع وهنالك انزل الدلال حمله ونشر بضاعته امامي فرأيت
فيها عنتري من الحرير مزينا من الامام بشريط من القصب الذهبي
وبالمثل زراثره فقبضت عليه وسألت عن ثمنه فابتدأ الدلال يبالغ ويمدح
في حسنه ويستحسن ذوقي له لانتخابي اياه واقسم لي انه ملك لاحدى جواري
الملك الجرجانية المحبوبة عنده ولم تلبسه الا مرتين فقط
ولما رآني أجر به على نفسي ومقاسي صار يدور حولي ويتأمل لي وهو يصيح
قائلا (ماشاء الله ماشاء الله) انه عظيم الكسم وحسن المنظر عليك فاستحسنت
أخذه لانبساطي منه ومالت نفسي لمشترى طيلسان انتفع به يكون موافقا
للعنتري فاخرج طيلسانا كشمير يا قديما مما لوأمن الخروق والرقي وأكد
لي انه تعلق احدى السنات الموجودات في حريم الملك وقال انه يبيعه لي بثمن
مناسب دون القيمة فغرورى أدانى الى أن أفضل هذا الطيلسان على الشال
الكرماني الذي اذا كنت أشتريه ربما أدفع فيه قيمة ما أشترى هذا
الكشمير القديم المستعمل ثم صلحته وطويته وأخفيت ما فيه من العيوب
وتمنطقت به على العنتري ووجدت انه لا يحتاج شيا سوى مدية تغرس فيه
وبذا تتم هيئة الملبوس فناولتني الدلال مدية ورشقتها في منطقتي
وانبسطت من الدلال لما وجدت نفسي مشحونا بهذه الملبوسات حتى انني
لم يمكني مقاومة اظهار انبساطي ورضائي للدلال وهو بالمثل كان يتأخر
تلطفا ويتأمل لي ويؤكد انه لا يوجد في مدينة طهران رجل أجمل وأحسن

منى فى اللبس والكسم

وبعد ان انتهينا من ذلك وعدنا لقطع الثمن وجدت المسئلة فى دور جديد وتغيرت لدرجة عالية وذلك ان الدلال ابتدر يؤكد لى عن عفته وشرفه وانه ليس مثل الدلالين الآخرين الذين يطلبون مائة ويرسى طلبهم على خمسين وقال انه اذا تلفظ بكلمة يلزمنى ان اعتمد عليها واجعلها عين الحقيقة وبعد ذلك طلب منى خمسة تومان ثمن العنترى وخمسة عشر فى الشال وأربعة فى المدية والجميع أربعة وعشرون تومانا

فلما سمعت هذا الثمن الغالى منه هبط سرورى لانه لم يكن عندى الا عشرون تومانا فى جيبى فأردت خلعها واعادة ملابسى القديمة كما كانت فاوقفنى الدلال وقال أتظن ان هذه قيمة زائدة فاقسم لك برأسى وحياتك انى اشتريتهم بهذا الثمن ولكن اخبرنى عن القيمة التى تريد دفعها فاجبته ان هذا الثمن الغالى لم يخطر ببالى وما انى بفكرى ذلك ولكن لو سمحت لى بخمسة تومان فى جميعهم فلا باس من مشتراهم

فابى الثمن محتقرا وعلى ذلك قلعت ملابسه ورددت اليه أمتعته فلما جمعها وحملها ورأى ان الانفصال انتهى تقريبا قال انى أراك صديقى وأود معاملتك مثل أخى خذها بعشرة تومان فرفضت طلبه ثانيا ووقفنا نجادل بعضنا حتى اتفقت معه بان أدفع له ستة تومان وتومانا واحدا على سبيل الهدية اليه فما اتممت حديثى الا وسمح بالثمن فدفعت له الدراهم وربطت مسواقى وحملته وعزمت بالذهاب أول كل شئ الى الحمام وهناك ألبس ردائى وأنظم نفسى وفى أثناء طريقى اشتريت زوج نعال بكعب عال وقميص ديباج أزرق وسروالين خز قرمزى وربطت الجميع مع بعض فى منديلى وتوجهت سريعا الى الحمام

فدخلته بدون أن يشعر بى أحد لان رجلا مثلى رث الهيئة لا يحدث نحوه

أدنى التفات ولا احساس لجهته فسليت نفسى بالتامل فى تغيير حالتى حالما ارتدى بملابسى الجديدة فوضعت حقيبتى فى احدى زواياه عند رجل وفيها أيضا خلعت ملابسى ولففت جسمى بفوطة ودخلت الحمام حيث داخله لا يعرف فيه الغنى من الفقير بل الكل بمنزلة واحدة فى الشكل وصرت الآن اتملق لنفسى وأقول ان كسمى اللطيف وصدرى العريض والعنترى الضيق المسبول يجعلانى عرضة للغرور والكبر والعجب بنفسى

ثم انى دعوت للمكيساتى وامرته بان يجرى ما يلزم لى من عملية التدليك والتكييس المختلف بيده فوق جسمى ويستعمل فى المحلات الخشنة الكيس الشعر وأمرته أيضا بحلاقة رأسى وتجهيز الادوات اللازمة لصبغ لحيتى وشواربى وضفائرى وبالمثل يدى وباطن أرجلى وليجهز أيضا آلة النتف لازالة ما عندى من الشعر الداخلى وبالاختصار أعلنت ما فى عزمى من تحملى مشاق التطهير والتنظيف لآخر درجة وبمجرد ما ابتدأ المكيساتى فى التدليك أظهر تعجبه من عرض صدرى بصراخه المكرر ولكن لكونى الآن أخذت فى أسباب اظهار السلطة والهيبة التى ستنشأ من ملبوسى الجديد فسلكت مسلك الذين تعودوا على المدح والالتفات مع هذا الرجل وقال لى انه ما كان يمكننى الحضور فى أسعد ساعة مثل هذه الساعة لانه فى هذه اللحظة انتهى من خدمة خان أحسن عليه الشاه ببدلة الشرف نظير احضاره اول بطيخة ظهرت باصفهان فارسل الى الحمام بواسطة المنجمين فى الوقت المعلوم عندهم بانه اسعد وقت يليق فيه التوشح بالرداء الجديد

هذا ولما انتهيت من الاغتسال احضر لى المكيساتى ملايات دافية ولففنها على جسمى ووصلنى للمحل الموضوع به ملابسى وبوقت ما فتحت الحقيبة ونظرت خلعتى وزينتى دخل على السرور والانشراح الزائد الذى اعجز عن وصفهما حيث أصبحت فى دور جديد وكلما ألبس شيا يزداد تغيير شكلى

بالنسبة لحالتي السابقة ومن يوم ما نشأت للآن لم ألبس الحرير الا في هذه الساعة وربطت سروالي الحرير على هيئة رجل متانق في لبسه وعند سماعي جلجلة العنتري تعلق كنت التفت خلفي بحالة العظمة لانظر من يراني ولسان حالي يقول

اسيلات ابدان دقاق خصاره * اثيرات ما التفت عليه المآزر

وأما طيلساني فوضعته حول عنقي بغاية الاتقان والظرافة وكان نازلا منه جزء يسير من الامام ومنتشر قليلا على ظهري ولما وضعت المدية في منطقتي ورأيتها تلمع تصورت انه لا يمكن لاحد التزيين مثلي وساويت قمة قاوقي على شكل ملوكي ووضعته على رأسي مائلا جدا من جهة على جبهتي ثم ولما أحضر لي الحمامي المرآة لانظر نفسي علامة على دفع الاجرة أخرته حتى أعاين واساوي ضفائري وأبرمها خلف اذني ورفعت شوارب بي جهة عيني وبعد ذلك دفعت له الاجرة بكل لطافة وانسانية وتركت بدلتي القديمة في حراسته ثم خرجت من الحمام بهيئة رجل من ذوي الاعتبار والمقام

عجفاء مقبلة بجزاء مدبرة * ممخوطة جدلا شنباء أنياب

﴿الفصل الثامن عشر﴾

﴿رجوع الشاعر من الاسر الى وطنه وما ناله الحاج بابا من عواقب عودته﴾

ثم انني سلكت الطريق الموصل الى منزل الشاعر مؤملا استنشاق الاخبار عنه فلما صرت في آخر الشارع جملة ناس مزدحمة على بوابته وبوقتها اخبرت انه حضر في هذه اللحظة وطلع من سطح المنزل بدلا عن دخوله من الباب على حسب العادة المعتادة عندهم ان كل رجل تبالغ عنه اثناء سفريته وفاته وعاد سالما لوطنه فانه يدخل البيت من أعلى منزله

ففى الحال هجمت بنفسى بين الجموع وتوجهت الى المحل الجالس فيه الشاعر وهنأته بوصوله سالما وانا مظهر له جميع علامات الفرح والسرور الكلى وبعد ان أوضحت له عن اسمى ومن انا لم يتذكر معرفتى وكاد ان لا يصدق ان واحدا مثلى بحالة النظافة والتأنق وانتظام لبسه يكون نفس الرجل الوسخ الوحشى الرث الذى تعارف معه حالة أسره

وكانت الصالة غاصة بالناس من كل نوع البعض فرحون بسلامته والبعض خاب أملهم ومكدرون ومن ضمنهم مرزا فضول الذى كان تعين فى وظيفته وكان يكثر من التحية والسلام والتملق اليه ولم يسكت عنه لحظة الا ويحييه صائحا بقوله لقد كان محلك خاليا مظلما فأصبح نيرا بتشريفك اياه وقد نورت المكان وكشفت الظلمة عن أعيننا

ومازال على هذا المنوال مدة مكثه لا يقطع الكلام حتى سمعنا أخيرا ضجيجا عظيما ففتحت الابواب واذا بأحد ياوران الشاه حضر وطلب من الشاعر قيامه حالا وتوجهه عند الملك فقام وعليه ملابس السفر وركوبه وهو مملوء من الغبار وتوجه بالحالة التى كان سائحا بها

فعند ذلك تفرقت الجموع من المكان وخرجت انا من المنزل عازما على العودة ثانى يوم ولكن حال خروجى صادفت الناظر فى طريقى الذى كنت تحاورت معه سابقا عن حضور الشاعر وما كان يرى عليه احد من الناس المسرورين بحضوره فقلت له (باسم الله هل تحقق لك صدق مقالى بحياة الخان)

فتنهد من صميم فؤاده وقال لقد صدقت يا حاجى بحياته فاسأل الله أن يبقيه عمرا مديدا والله على كل شئ قدير

وبعد أن صاح بالدعاء مرتين ثلاثة تركنى وهو مملوء من الغيظ والخيبة وقد امضيت باقى يومى وانا أجول فى كل جهة وابنى قلاعا فى الهواء ثم تمشيت داخل الاسواق ودخلت الجوامع وحشرت نفسى بين الكمالى الكثيرين

العدد حول السرايه الملوكيه فوجدت أخبارهذا اليوم مقتصرة على رجوع الشاعر والحالة التى استقبله بها الشاه فالبعض قال ان الشاه لما بلغه حضوره أورى استحالته ولم يصدق وقال لابد وانه توفى وأيقن بموته والبعض أخبر بضد ذلك على أن الشاه أخبر بحضوره وأمر باعطاء المبشر بهذا الخبر عشرة تومان

مع ان الحقيقة هى ان الملك لما بلغه الهيجان الحاصل لحضور الشاعر تكدر وخاب أمله بالنسبة لابطال الترتيبات التى تظمها بخصوص منزله وأمتعته ولذا ضعفت همته فى استقباله استقبالا حسنا ولكن لوقوف الشيخ عسكر على حالة الملك وميله الزائد لسماع الاشعار وبالاخص من صنف الاشعار التى يغنون بها فى المدائح الملوكيه فكان الشاعر من شدة فطانته متذكرا هذه المسئلة واستحضر على قصيدة أنشاها حال وجوده فى أيدى التركمان ولما ان رأى اغبرار الملك من جهته والاعراض عنه فى الحال قام وتلا القصيدة مرتجلا حتى ان الملك بسماعها بعد ان كان صارفا النظر ومحولا وجهه عنه انشرح صدره ومال اليه ووجه التفاته العائد بالمنفعة عليه نحوه وبالاختصار حشى فاه جوهرا نظير ما كان به من المشاق وخلع عليه خلعة من أفخر الملبوس وأعيد لوظيفته وأمر له برد جميع أمتعته وكافة ما كان يمتلكه

فلما بلغنى هذا الامر انشرح صدرى وقلت بلا توانى قاصدا تهنئته بالثانى حيث لم يكن لى سيد ولا ملجأ خلافه ولسان حالى يقول

سعد الزمان وساعد الاقبال * ودنا المنى وأجابت الآمال

واستمريت على التوجه كل صباح بدون أن أتأخر يوما الى مجلسه الرسمى ولما تيقن من معرفتى واشتد ميله نحوى شرحت له حالتى وترجيته اما أن يعينى فى وظيفة فى دائرته أو يتوسط لى عند أحد أصحابه ليتخذنى خادما عنده

وقد

وقد اطلعت على ان الاسباب الموجبة تخيبة الناظر على رجوع سيده هي
ناتجة من خوفه مما نسب اليه من اختلاسه في أشغال خاصته ولكوني
باسباب ذلك تأملت توظيفي في محله فكنت أظهر غيرتي الشديدة فيما يعود
بالمنفعة على الشاعر وأخفيت عنه جميع ما أعلمه مما أجراه خدامه من
التقصير ومع ذلك لم أنجح في هذا المشروع ولربما كان السبب زيادة تبصره
عني ووقوفه على جميع الاحوال أو كون الناظر اتخذ الاحتياطات
القوية في براءة نفسه أو خلاف ذلك مما لا أعلمه حتى اختبل عقلي في ايجاد
الحقيقة وانتهى الحال على ابقاء الناظر في وظيفته واستمريت مواظبا
لمحفله الرسمي بصفة تابع مع عدم انقطاعي عن أداء الخدمة يومي
فاخبر ادعاني اليه عسكر الشاعر ذات يوم وقال لي ياحاجي ياصاحبي لا يخفى
عليك وجوب الشكر الفائق اليك وممنونيتي الزائدة منك بالنسبة لما
صنعته معي من الجميل الذي لا ينكر وقت ما كنا مأسورين سوية تحت أيدي
التركمان ولاظهار تشكراتي ومكافأتك نظير ما سلف منك من المعروف فقد
أوصيت عليك احد أصحابي مرزا أحمد وأكدت عليه غاية التأكيد وهو
حكيمباشي الملك كان محتاجا لخادم واني أخبرك بلا شك انك اذا واظبت
على خدمته والتفت اليه وانبسط منك فانه يعلمك هذه الحرفة ويجتهد لك في
الطريقة الموجبة لازدياد ثروتك وما عليك الا الآن الا التوجه اليه والدخول
عنده واخباره انك مرسل من طرفي وهو بوقتها يعينك في وظيفة
فلما سمعت كلامه شكرته وقلت في نفسي انني لم أتدرب في صناعة الطب ولم
يسبق لي الخوض فيها ولكنني تذكرت حكاية الدرويش التي ألقاها أمامي
فادعيت معرفتها وعدم مبالاتي بها باحتقارا لما السوء حالتي وضياع
دراهمي لم أجد سبيلا الا قبولي خدمة الحكيم وعلى ذلك توجهت في صباح
ثاني يوم الى منزله المكائن بجوار السراية وعند ما دخلت وأنا متردد أقدم

رجلا وأوخر أخرى كالضيف المهجور حتى توسطت فى عرصة البيت فوجدت جملة أشخاص مرضى البعض مفترش بجانب الحائط والبعض براعيهم أصحابهم والبعض مجهزون زجاجا فى أيديهم ينتظرون خروج الحكيم من عنابر النساء الى الزيارة العمومية

ثم تقدمت نحو شباك مفتوح حيث هناك واقف الاشخاص الغير مصرح لهم بالدخول فى أودته وانتظرت هناك لحين ما يطلبنى وكان داخل أودته جملة أشخاص حضروا اليه على سبيل التحية لان كل ضابط فى الديوان كان يجلس عنده فى محله الرسمى ومن تأملى لحالتهم توصلت الى الطريقة التى أتقدم بها فى أثناء حياتى وذلك بكونى أبذل جهدى فى ابداء ما يمكنى من المنفعة لاى شخص ولو لكلب أو لقط يصادفنى فى طريقى وبهذه الواسطة تصل الشهرة لآذان الرجال من أولى الامر والسلطة ثم وجهت أفكارى نحو مصائبى التى كابدتها سابقا وكنت أحسب المدة التى يمكنى فيها التملق وابداء العبودية للناس حتى بها يشتهر اسمى وأجذب التفاتهم نحوى وذلك لما عاينته من انحناء الواقفين بجانبى علامة على التحية وقت حضور الحكيم وقعوده على الشباك يريد بذلك انه ابتدأ فى اعادة المرضى ومعالجتهم فى أثناء هذا النهار

وكان الحكيم رجلا طاعنا فى السن وعيناه غائرتان داخل رأسه وعظمتا خديه بارزتان لنحافة جسمه وذو لحية خفيفة وبظهره انحناء زائد وعند ما يجلس تكون هيئته مضحكة عارية عن الاعتبار فانه اذا جلس كان يرتكن مائلا برأسه من بين كتفيه ويداه موضوعتان على منطقته واما كوعاه فكانا يتكونان منهما زاويتان على كل جانب وكانت أسئلته حادة وأجوبته مهمهمة ذات دوى ويظهر عليه أنه لا يتفكر فى أمر آخر أثناء حديثه بل يرى عليه انه محول أفكاره نحو الموضوع الذى هو بصدده

وبعد ان رأى حالات الامراض الحاصلة للناس الذين حضروا لعيادته وتكلم قليلا مع حلقة الطفيلية المحيطة به نظر لى بعد ان أخبرته انى أنا الشخص الذى تكلم معه الشاعر عنه فقطع لى بعينه الحادة الصغيرة مقدار لحظة وأمرنى بالانتظار لانه يريد الاختلاء معى فى الحديث وعلى ذلك تركنى وخرج من محله لمشاهدة المرضى ثم دعيت بعد قليل بالجلوس فى محل منفصل محبوك بالحيطان من كل جهة الا من جهة واحدة بها محل الخلوة وفيها جلس الحكيم

﴿الفصل التاسع عشر﴾

﴿دخول الحاج بابا فى خدمة حكيم الملك والمسئلة التى تكلف بتأديتها فى مبدا خدمته﴾

وبمجرد ظهورى دعانى الحكيم الى أودته وأمرنى بالجلوس فأطعت أمره بكل خضوع كما هى عادة الفقير أن يظهر لمن هو أعظم منه الاعتبار والشرف الزائد وأخبرنى ان الشاعر مدحه فى حق غاية المدح وقال اننى شاب يركن الى فى مهام الامور خصوصا فى كتمان السر والتبصر فى عواقب الامور التى تقلبت فيها زمنا طويلا فى حياتى وأصبت فيها بعصا دقة آرائى وانى اذا أحيل على أى مسئلة يلزمها الاعتناء وعدم الافشاء وكانت ضرورية وصعبة الانفصال وأنيطت بى فانى أبذل ما فى وسعى سواء كان فى كتمانها أو نهوها باى صفة

(قال الحاج بابا) فلما سمعت كلامه قمت وانحنيت له جملة مرار تشكرا له ووضعت يدى أمامى مستورتين بكمى اعتبارا وتعظيما له مع احترامى الزائد فى ستر اقدامى واخفائهما ثم استمر فى حديثه قائلا

انى لفى حاجة شديدة لوجود شخص مضاهى لا وصافك فى هذه الدقيقة وبما

انه حصل لى ميل شديد ومحبة زائدة نحوك من تأثير توصية صاحبى الشيخ عسكر عنك فنى قصدى استخدام محاسن هممكم وتدبيراتكم فى مسئلة حتى اذا انجحت فيها تعود فائدتها اليك وتكون لى تذكرة عظيمة لا أطرحها عن فكرى مدى الايام ومأثرة جليلة تخلد متكم مادام الليل والنهار ثم قربنى منه وبعد ان التفت يميناو شمالا جهة كتفيه خيفة من أن يراه أحد قال لى بصوت منخفض ونغمة المحبة

ياحاجى لقد حضر فى هذا الديوان من مدة أحد سفراء الافرنج وبعيته حكيم وقد اكتسب هذا الكافر الشهرة التامة فى هذه المدينة فانه يعالج مرضاه بكيفية جديدة بالنسبة لنا ولم يسبق لنا اجراؤها وقد أتى الينا بصندوق مملوء من الادوية التى لا نعرفها ولا نعرف أسماءها أيضا ويدعى أن له معلومية بجملة أشياء لم نسمع عنها مطلقا فى بلاد العجم ولا يفرق بين الامراض الناشئة عن حرارة أو برودة وبين الادوية الحارة والرطبة على حسب اقرار جالينوس أو ابن سينا وانه يعطى الزئبق بواسطة علاج مرطب و يغزر البطن بآلة حادة لاخراج الريح الذى يتكون بالمعدة وأدهى من ذلك ادعاؤه ازالة الجدرى كلية بواسطة حقنه فى جسمنا مادة من خلاصة مستخرجة من البقرة وانى ياحاجى لا أكتفى بهذه الحالة فان الجدرى كان دواما مصدر دخلى العظيم ولا يمكن ترك ذلك فان حضور كافر الى بلدتنا ومكثه فيها ومعاملتنا مثل البهائم لا نقبله ولا يتأتى لمثله أن يختطف اللقمة من أفواهنا

وان الداعى الموجب بالاخص لطلبى مساعدتك هو ان الصدر الاعظم حصل له توعك زائد منذ يومين ناشئ عن شراهته فى أكله خس وقثاء زيادة عن طاقته معموسين بالخل والسكر فطرق الامر مسامع سفير الافرنج وكان مشاهدا الصدر الاعظم فى أكل الخس فارسل له طبيبه بعد ان استأذن منه بنظر أمره وتعاطى دوائه

و يظهران الصدر الاعظم والسفير لم يتوافقا معا مدة من الزمان نظرا لما كان تطلبه السفير من الامور السياسية ولفائدة بلاد العجم مكر الصدر الاعظم عليه وتجهل الامر حتى انجبر على انكاره ولهذا السبب ظن ان هذه فرصة لمصالحة الكافر ورضائه فقبل مشورة حكيمه ولو كنت أعلم الواقعة لتدبرت الامر بوقتها بطريقة سهلة وأوقفت المسئلة ولكن الحكيم لم يتأخر لحظة فى اعطائه الدواء الذى لا يحتوى الا على حبة صغيرة بيضاء ليس لها طعم وقد نشأ من هذه الحوادث التى ساءتنا ما هو من أعجب العجاب وذلك انه لما حصل الشفاء للصدر الاعظم لم يتحدث بشئ الا بقوله انه استشعر ان الحبة جذبت الرطوبة من أطراف أصابعه ووجد قوته وعزمه يتجددان شيأ فشيأ و يتعجب من ذلك نظرا لتقدم سنه وكان يتحدث أيضا بقيامه بواجبات زوجاته المصرح له بزواجهن حسب الشريعة الاسلامية

ولم تستقر المصيبة على ذلك فقط بل انتشرت شهرة الدواء والحكيم الافرنكى فى عموم الديوان وأول أمر تكلم به الملك فى المجلس هذا الصباح هو خواص الدواء الخارقة للعادة ودعا بالصدر الاعظم ليعيد عليه ثانيا ما كان من أمره فى حضرته عن نفس الموضوع و بمجرد اخباره بالمنافع العجيبة التى ظهرت على شخصه ازاح جلالته دمدمة المدح والتعجب بالمجلس عن مهارة ونجاح الطبيب وعلاجه

فعند ذلك التفت لى جلالته وسألنى توضيح هذه التأثيرات الغريبة الناتجة من دواء يسير فلما أردت مجاوبته انحنيت جدا بقدر امكانى لمداراة نجلى وقبلت الارض وقلت

أدام الله اجلالك انى فداء لك يا ملك الملوك وانى لم أر للآن الاجزاء المتركب منها العلاج الذى أعطاه الحكيم الكافر الى خادم جلالتك الصدر الاعظم وبحال استكشافى ما يحتويه أحيط علم جلالتك به وان عبدك الوضيع

يلتمس من مركز الكون بتفكرة جلالتك ان الفاعل الاصلى لهذا الدواء
هو الروح النجسة التى هى عدوة لدين الحق وقد أصبح آلة فى يد كافر يدعى على
نبينا الطاهر عليه السلام انه غشاش مع عدم اعتقاده بالقدرة الالهية
وبالقضاء والقدر

(قال حكيم الملك) وما قلت ذلك الا لتقليل شهرته التى تزداد يوما عن يوم ثم انى
تركت الملك وأنا غريق فى بحور التأمل أتبصر فى الطريقة التى يمكن بها
استخراج مخبآت الكافر والوقوف على كيفية تركيب الدواء الذى ظهر
منه هذه المعجزات والحمد لله يا حاجى الذى اسعفنى بك وحضرت فى هذا الحين
لمساعدتى والواجب عليك الآن المصاحبة معه وانى أفوض أمر استمالته
لهمتك فى جذب عقله وتجسس معرفته وأريد انك تحصل على انموذج من
نفس الدواء الاصلى الذى استعمله الصدر الاعظم لانى مجبور أن أوضح
للشاه باكرا عن أصل تركيبه وتحليله ومشتملاته ويلزمك أن تبتدئ فى أول
خدمتك لى باكل كثير من الخس والقثاء الغير مستوية وتتمرض كثيرا كما
فعل سمو الصدر الاعظم وعند ذلك تذهب الى الحكيم الافرنكى للكشف
عليك وانى لا أشك من أنه يعطيك علاجا من نفس المحبوب المشهورة وبوقتها
تحضرها لى

(قال الحاج بابا) اذا كان أخذه الرعب من هذا الامر المهول فكيف بى
لو أنا داخل فيه وأقابل رجلا أجهله سيما أهالى أوربا فقد بلغنا عنهم جملة نوادر
عجيبة حتى انى أرتبك بمقابلة هذا الرجل

ثم سأل الحكيم النجمى وقال له التمس اخبارى عن الطريقة التى أستعملها
فى سيرى فان أحوالهم وعوائدهم مختلفة بالنسبة لنا فاجابه الحكيم واسمه
مرزا أحق قائلا

لقد صدقت فى المقال ولا شرح لك بعض عوائدهم حتى ترسخ فى ذهنك فيدلا

عن حلق رؤسهم وترك لحاهم تنمو كما نفعل فانهم يضد ذلك ولم ير على اذقانهم
أثر الشعر وان شعر رؤسهم غليظ كأنهم تعاهدوا على عدم قصه بالكلية
وكذلك يجلسون على كنبات عالية واما نحن فنفرش على الارض
ويتناولون طعامهم بمخاليب من الحديد ونحن ناكل باصابعنا ويتمشون
دواما بعده ونحن نركد ويلبسون الملابس الضيقة ونحن نرتدي بالواسعة
ويكتبون من الشمال الى اليمين ونحن نكتب من اليمين الى الشمال
ولا يصلون مطلقا اما نحن فنصلي خمس صلوات كل يوم وبالاختصار لا يمكن
الانفضاض من سرد أحوالهم ولكن الاكثر تحققا عندهم انهم أوسخ أمة
على وجه الارض لانهم لا يمسكون شيأ طاهرا ويأكلون جميع أنواع
الحيوانات من الخنزير الى الضفدعة بدون أن يداخلهم أدنى ارتياب
وبدلا عن ان يذبحوها من أعناقها فيشرحوها وهي ميتة بدون تطهيرها
ويؤدون جميع وظائف طبائعهم البهيمية بدون ان يروا ضرورة للاستحمام
في الحمام السخن أو يدلكون أنفسهم على الاقل بالرمل
فسألته وهل حقيقي انه اذا حصل شك في كلامهم وادعى أحدانهم كذابون
يثور غضبهم ويحاربون للممات فاجاب الحكيم يقال عنهم أيضا ذلك
ولكن لم يحدث لي للآن بينهم أمر من هذا القبيل ومع كل فاواجب علي
أن أعلمك عن شئ واحد وهو انه اذا تصادف وأعياهم معرفة شئ أعجبهم في
حوزتك فلا يلزمك ان تخبرهم به مثل ما تخبر أحدنا من أهل الوطن وهذه
نصيحة مني اليك فلترسخ في ذهنك لئلا يمسكوا على كلمك ويقولوا بها ولربما
لم يتأت منها فائدة ولم تات بالمقصود فتصبح مرتبكا فيه انما تجتهد ببذل
جهدك في التكلم بحسب ما يتراءى بفكرك حتى اذا رأيتهم بهذه الحالة
يميلون لحديثك
فأجابه الحاج بابا قائلا اذا كان الامر كما ذكرت الا تفتكر ان الحكيم

الافرنكى يكذبنى بحال ادعائى المرض حالة كونى فى صحة سيما عندما أطلب منه دواء باسمى وهو لغيرى

(قال مرزا الحكيم) لا لا يا حاجى انك لمريض وحقيقة مريض هيا هيا ووضع ذراعه حول عنقه وقال اذهب وتناول قثاءك واحضر لى الحبة فى هذا الصباح

(قال الحاج بابا) واستمر مرزا يلاطفنى ويمنعنى عن ابداء موانع لمعارضته فى طلبه الذى لم يكن على بال ثم أخرجنى بلطافة من أوردته وتركته وأنا متحير بين ضحك وبكاء من هذه الوظيفة الجديدة التى ابتدأت فيها باشعالى هذه

ثم تفكرت فى تعرض نفسى بدون مكافأة معينة وقلت لا أقبل ذلك وتأخرت عن المسير خلاف عازما على انفصال الاجرة مع سيدى ولكن حال وصولى لاوردته لم ألحقه بل رأيته على بعد داخل الى الحريم ولذا انجبرت ان أقوم بقضاء مأموريتى

﴿الفصل العشرون﴾

﴿فى نجاح الحاج بابا فى غش الحكيمين وحصوله على حبة من الدواء من واحد وقطعة ذهب من الآخر﴾

(قال الحاج بابا) ثم اننى اتخذت طريق الموصل لمنزل السفير وبالفعل عزمت على اتمام مقصود الحكيم وان أتحايل على طريقة بها أمرض نفسى فى أثناء الطريق ولكن بعد التأمل الزائد تذكرت ان تمريض المعدة غير مامون ولربما ينأتى منه اتلافها كلية فى لحظة صعيرة لان عدم موافقة الحس والقثاء لمعدة الصدر الاعظم يحتمل ان ذلك تطر التقدمه فى السن وهذا لا يحصل الا لفرد فى المائة ولكن يمكن هضم هذه المأكولات هضما

تامافى معدة شاب صغير مثلى وعلى أى حال فقد صممت على الحصول على الحبة بواسطة الحيلة ان لم يتيسر جلبها بصورة مرضية

ثم تاملت انى لو تمرضت فلربما يطلع على أمرى الحكيم ويظهر غشى ويطردنى من منزله بصفة غشاش فاستحسنت بان أسهل طريقة لاتمام مرغوبى وهى تظاهرى بهيئة أحد خدمة حرم السراية الملوكية واخترع له حكاية للحصول بها على غايتى وعلى ذلك توجهت الى احدى دكاكين الملابس الكهنة بالسوق واستاجرت برنسا مثل الذى تلبسه الكتبة ووضعت جانبا من الورق فى منطقتى مدلا عن الخنجر ونويت فى ضميرى أن أهيئ نفسى وادعى بكلام زيادة عما تقوله الخدمة العادية

وبالحال استدللت على الجهة القاطن بها السفير ولكونى متذكرا فى عقلى ما أخبرنى به مرزا أحق فوصلت لباب مسكن الحكيم وأنا خائف أقدم رجلا وأؤخر أخرى ووجدت الشوارع الموصلة اليه مزدحمة بالنساء الفقراء حاملات الاطفال على أذرعهن وقد أخبرت انهن أتين لتلقيح الجدرى لاطفالهن بالطريقة المستجدة وذلك لاسباب سياسية علم منها ان الافرنج يفعلون ذلك اشتياقا للعود رجاتهم وشهرتهم لان الحكيم الافرنجى اذا عالج الناس مجانا لا ينتظر حاجة من المرضى خصوصا الناس الفقراء جدا الذين لا يمكنهم الوصول الى حكيم أعجمى بدون هدية أو اعطائه أجرة تقوم مقام اتعابه

وفى أثناء دخولى نظرت رجلا جالسا فى منتصف المحل بالقرب من رف خشب مرتفع موضوع عليه علب المحبوب وكتب وجملة مختلفة من العدد والآلات لا أعلم كيفية استعمالها وكان فى اللبس والمنظر أهيأ وأعظم من أى كافر نظرته فى عمرى فكانت ذقنه وشفته العليا لم يرعليهما أثر الشعر على شكل الطواشى تماما ورأسه مكشوفة على الدوام بدون مبالاة

وحول عنقه رباط ضيق وبعض اختراعات حول خديه كأنه يريد تغطية جرح أو مداواة داء وملابسه ضيقة جدا وبالاخص ساكوه البرانى مقصوص جميعه من قطع زوايا رفيعة والظاهر ان استعمال هذا القماش فى بلده كان نادرا لغلوه وكان القسم التحتانى من لبسه غير منتظم ووجدته أيضا واضعا مركوبه داخل الاودة يدوس به على السجادة فاغتظت لهذا الامر حيث انها عادة متلفة لاحوال الزينة

فلما رآنى خاطبنى بلغتنا وسالنى عن حالتى وأسرع قائلا ما أحسن اعتدال هواء هذا اليوم ولكون كلامه فى محله طابقته مصدقا عليه وبعد ذلك استحسنت ان أدهيه بالفاظ عذبة وان كانت كذبة وأتملق له بقدر طاقتى وأخبرته عما ناله من الشهرة العظيمة فى بلاد العجم وان لقمان الحكيم لا يضاهى جزأ من معرفته وان معاصريه أطباء العجم لا يكون فيهم لياقة لمناولته يد الهاون

فلما سمع كلامى لم يتلفظ بكلمة مما فقلت له ان الملك لما بلغه التاثيرات العجيبة الناتجة من دوائه لوزيره أمره وأرخه بدرج هذه المسئلة فى تاريخ المملكة ويجعلها من النوادر المهمة التى حصلت مدة حكمه حتى شاع هذا الامر وكان له وقع عظيم داخل سرايه جلالته لان كثيرا من السنات تمرضوا واشتاقوا جدا التجربة محاسنه وان محبوبة الملك الجارية الجرجانية قد أضر بها المرض حقيقة حتى ان رئيس الطواشية بناء على ارادة جلالته الخصوصية ندبنى للحصول على دواء من عينة الدواء الذى استعمله الصدر الاعظم ثم سألت الحكيم ان يعفنى حالا بجزء من هذا الدواء

فلما سمع كلامى أظهر لى افتخاره على ما قلته وبعد ان تأمل قليلا أجابنى انها ليست عادته أن يعطى الدواء بدون كشفه على المريض أولا لانه بذلك ربما يحصل له ضرر عوضا عن الشفاء واذا وجد الجارية فى حاجة لمساعدته يكون مسرورا للالتفات اليها ومراعاة خاطرها فاجبته أما من جهة

كونك تريد النظر لوجه الجارية الجرجانية فامر لا يتأتى ويستحيل وقوعه لعدم السماح لاحد منا في بلاد العجم بالنظر الى المرأة الاجنبية خلاف زوجها وأما اذا الجأتها الضرورة وكان الالم شديدا يخشى منه فحينذاك يؤذن للحكيم بجس نبضها ولا يفعل ذلك مالم تلف يدها بحاجز من القماش فاجابني الحكيم الافرنجي عن ذلك اني لاجل أن أكون على معلومية تامة مما يشكو به المريض لم أجس النبض فقط لا بل وانظر اللسان أيضا فقلت اما مسئلة النظر في اللسان فشئ مستجد لم يسمع به للآن انسان في بلاد العجم وأنا على يقين من عدم امكانك التملي بهذه الرؤية الا بمقتضى ارادة خصوصية من عظمة الملك بما ان الاغا يفضل قطع لسانه أولا أسهل له من هذه المسئلة

(قال الحكيم) لا بأس من ذلك ولكن تبصر في أمرك وهو اني اذا أعطيتك الدواء أكون خالي المسؤلية مما يحصل منه من التأثيرات لانها ان لم تشف فلربما تميت

فلما أيقنت له عدم مسه بضرر أو وهم يتنح من ذلك مطلقا فتح صندوقا كبيرا يظهر انه مملوء من أصناف العطارة وأخرج منه جزأ يسيرا بمقدار معلوم من مسحوق أبيض ومزجه ببعض الخبز وجعله على شكل حبة ثم لفها في ورقة وناولها لي بعدما أوراني الوسائط الكلية في كيفية استعمالها ولما تبين لي منه عدم اخفائه شيأ من معرفته ابتدرته بالسؤال عن أصل وخواص هذا الدواء الخصوصي واستعماله على وجه الاطلاق فاجابني بدون ملاحظة شئ ليس مثل حكمائنا الاعاجم الذين يتفاخرون فقط بعذوبة الالفاظ ويصلحون كل مرض يصادفهم بما يطالعونه في كتب جالينوس ومعتقداتهم وابن سينا

ثم انني بعدما التقطت منه ما أمكني معرفته تركته مظهرا له علامات المودة

والشكر ورجعت حالا الى مرزا أحمق الذى كان ينتظر فى بلا صبر الا انى نزعت ملابسى المؤجرة ودخلت عليه بوجه سقيم على حسب ما أمرنى فى أول الامر لادخل فى ذهنه ان الخس والفناء حصل منهما تاثير وكنت كلما أكلمه بكلمة ادعى بحصول ضربان فى قلبى واستمريت بهذه الحالة متظاهرا بسوء عاقبة الالم حتى ان طبيعة مرزا أحمق التى جبلت على الفظاظة والعبوسة والصلابة لمحت ببعض اشارات من الشفقة والاسف نحوى وذلك انه بحال دخولى عليه صحت قائلا (باسم الله خذ غنيمتك) وأنا مظهر الالم ومحنى نصفين ومعبس وجهى لآخر درجة وأناوه بانين من صميم الفؤاد وأقول له ها قد نفذت أوامرك وقضيت حوائجك فها أنا الآن اسلم نفسى لقبضة مروءتك وجودك

فاجتهد بوقتها للوقوف على اسباب الحصول عليها فتكتمت عليه الامر وفى اثناء ما كنت اظهر له انى منتظر جائزة وقتية فكنت اريه بعض اشارات تدل على ازدرادى اياها ان لم يناولنى فى يدى شيأ مكافأة لذلك ولكن لما هو معتريه من الوجل الشديد لعدم قدرته على اجابة أسئلة الملك بخصوص هذه الحبة ولكونه أيضا كان فى شدة الاضطرار اليها وضع فى يدى قطعة من الذهب ولم أجد عاشقا يمكنه مقاضاة سيدته بقوة عظيمة لقضاء معروف زيادة عما فعله الحكيم معى بخصوص حبتى فوان كان فى امكانى اطالة الغش والاستمرار عليه واجتهادى فى جذب قطعة اخرى من الذهب الا انى لما رأيته يجهز لى جرعة لسهولة المى من مزوجه الخاص ووجدت ان ذلك يأخذ زمنا طويلا فادعيت زوال الالم مرة واحدة وعدت عن أخذ الدواء وأبطلت طلب مكافاة اخرى ولما ان صارت فى حوزته نفرس فيها وهو يقلبها يمينا وشمالا بدون أن يظهر فيها أدنى صناعة تزيد على

معرفته الاصلية فاخبر المرأيته على هذه الحالة مرتبكا فى أمرها استاذنته بتطمين خاطره كليسة وأخبرته أن الحكيم الافرنجى لم يخف شيأ منى وقت تركيبها وانها محتوية على الزئبق

فلما سمع مرزا أحمق هذا الكلام صاح باعلى صوته قائلا يا للعجب انه حقيقة من الزئبق (جيوه) وقد خفى عنى هذا الامر وذلك أن الكافر كاب النصارى يريد أن يسمنا بالزئبق فينشا من فعله هذا اندثار شهرتى ووصفى للعلاج ولم يأتنى أحد وأصبح أضحوكة بين الناس فمن من العالم أتى بسمعه ان الزئبق يعطى للدواء فهو باردوا لخس والقثاء أيضا باردان ولا يمكنك يا حاجى استعمال الثلج لتحليل الثلج فالحمار لا يدرى مبادى أصول وظيفته وهذه الفعال لا تخاصنا يا حاجى ولا نقتنع بذلك كما ولا نسمح بان الناس يضحكون على ذقوننا بهذه الحالة

(قال الحاج بابا) واستمر مرزا يهجو ويذم فى حق خصمه زمنا طويلا ولولا ان أتاه كتاب من الملك لاستمر ماليا فى بذل الفتن والفساد ضده وفيه يامره الملك بانه بمجرد وصول كتابه اليه لا يتاخر درجة عن الحضور امام جلالته بقدر ما يمكنه من السرعة وفى الحال توشح بوشاحه الرسمى وغير قاووقه الاسود الذى من جلد الشاة باخر ملتف عليه طيلسان ولبس جواربه الجوخ الحمر وهو طايش العقل ودعا بحصان وركبه وأخذ الحبسة معه وتوجه بغاية السرعة متلبسا بالافكار الكثيرة عما ستكون نتايج هذه الجلسة

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى بيان الكيفية التى يتعاطى بها الشاه الدواء)

(قال الحاج بابا) واستغرقت زيارة الحكيم مرزا عند الملك لحد المساء وعند

عودته دعانى اليه وقد وجدته من هيئته الظاهرية تملوأ من الغضب والغيظ الشديد ولما رآنى قادما عليه قال لى يا حاجى اقترب واجلس بجانبى وبعد أن أمر بصرف الحاضرين من أودته للاختلاء بى سارنى بقوله ان هذا اللعين لابد وان يكون متفقا على أمر مجهول وهل لا تصور ما حدث فان شاء استشاره وعقد معه جلسة نحو الساعة فى هذا الصباح بدون أن أعلم شيأ عنها وقد أرسل لى جلالته ليخبرنى بنتيجتها والذى أراه بمركز فكرى ان الافرنجى اكتسب سلطة عظيمة ونجح فى مشروعه ويظهر ان الملك شرح له تاريخ شكواه وما به من الضعف والربو المزمن وما عنده من التخمة وكان كلامه عن هذا الحقير بفرح وانشراح بالنسبة لفطانته ومداخلته وقال انه قبل أن ينظر لسانه ويجس نبضه وقبل معلوميته باصل الحالة سأل جلالته عما اذا كان جارى استعمال الماء الساخن على الدوام وهل يحدث له عوارض سعالية عند ما يشرب الدخان وهل لم يكن معتودا أثناء الطعام على استعمال المخللات فى السفرة والحلويات والارز كثير السمن وان الملك اذن له بثلاثة أيام لفحص حالته واستشارة كتبه وجمع آراء عقلاء الافرنج عن المواضع المهمة الموافقة لحالة بلاد العجم وان يركب دواء مفيدا ومعيد البنيته فى أقرب وقت وبعد ذلك سألنى مركز الكون أن أبدى آرائى وأمرنى أن اشرح بكل جسارة طبائع وخصائص الافرنج عموما وعن حالة علاجهم فاتبا عالامر جلالته لم أضيع هذه الفرصة فى شرح جميع حوامى وبعد الانتهاء من خطبة حديثى العادية خاطبته قائلا

اما طبائعهم التى لا تخفى عن فطنة جلالة الشاه السامية وحكمته الباهرة فانهم كانوا قوما عديمى الاعتقاد ونجسين وذلك لمعاملتهم بيننا اسوة غشاش ويا كلون لحم الخنزير ويشربون النبيذ بدون تحريم وكانوا

كالنساء فى المنظر والدبب فى الاحوال وكان الواجب التشديد بالحكم عليهم لما هم عليه من أعظم شبهة بان غرضهم النهائى الاستيلاء على الممالك وان يخضعوا ويذلوا الشاهات والامراء ويكونوا عبيدا خاضعين اليهم وانظر ما قد كان منهم فى الهند

وأما عن أدويتهم فصحت قائلا الله يحفظ جلالتك منها فانها خائنة فى التأثيرات كما ان الافرنج خائنون فى سياستهم لاننا ما نستعمله لحدوث أسباب الموت يدعون أنه مفيد عندهم للشفاء وان الجزء الاصلى الذى يدخلونه فى تراكيبهم هو الزئبق (وهنا أبرزت اليه حبتى) واما عن استعمال آلاتهم وأسلحتهم فحدث ولا حرج فقد روى عنهم انهم ينشرون أعضاء الانسان أملا لنجاة حياته ثم انى أظهرت له صورة مبينا فيها التأثيرات القاتلة التى تنتج من استعمال العلاج الاجنبى حتى انى بهذه الاباطيل أضعفت ميل الشاه نحوهم واوعدانه لا يأخذ الدراهم لم يعمل الاحتراسات القوية فى اصل تركيبه كما يقتضيه تبصره وحكمته وقد حصل الاتفاق على ذلك وقال انه عند ما يرسل اليه الحكيم الافرنجى العلاج الجارى تركيبه يدعونى لجلسة اخرى فالآن ياحاجى لا يمس الملك علاج الافرنجى لانه لو تصادف وتعاطاه وكانت نتيجته مفيدة فتضيع شهرتى وينذثر اسمى ويكون عدمى كحياتى ومن ذا الذى يستشير مرزا احق بعد ذلك ثانيا فلابد من السعى والاجتهاد فى استبعاد هذه الحادثة ولو ألزم بأخذ جميع عطارته لنفسى

(قال الحاج بابا) ثم افترقنا بوعد مرضى لبذل ما فى وسعنا لمعارضة الحكيم الكافر فى جميع حالاته ولم يمض على ذلك ثلاثة أيام الا والملك طلب مرزا احق للبحث عن الهيئة المعهودة المحتوية على علبة من الحبوب ومن المعلوم انه أوجد جميع انواع الريبة والشكوك ضدفا عليتها وابدى بعض

اشارات مبهمة عما يحدث من الخطر من تعاطى أى تركيب يؤخذ من وكيل دولة أجنبية حتى انه أخيرا أمال عزم الملك لاحالة هذه المسئلة على وزرائه للتروى فيها ولما انتصب المجلس ثانى يوم كالمعتاد وجلس الملك على تخته وعلى يمينه وشماله الصدر الاعظم وخزندار ه العمومى وناظر الداخلية وكاتب سر المملكة ورئيس خدمته وميرياخوره والسر تشريفاتى ورئيس حكمائه وكثير من ظباط معيته العظام ابتدأ جلالته يخاطب وزيره الاعظم ذاكرا له المخابرات التى حدثت بينه وبين الحكيم الاجنبى المقيم الآن بديوانه وعن استرداد وتجديد الذات الملوكية وانه فى الجلسة الاولى التى امتحن فيها الحكيم الاجنبى عظمته الملوكية أورى بوجود دلائل قوية دالة على ضعف بنيته وبعد ان أكد للملك فى الجلسة الثانية انه أشغل نفسه ثلاثة أيام باكملها فى البحث فى كتبه وتواريخه وبعد ان جمع منها أراء عقلاء مملكته على هذا الموضوع استنبط جملة أجزاء مختلفة من العطارة وجعلها جزأ واحدا وقال انها اذا استعملت من الداخل ينتج منها تأثيرات عجيبة حتى ان الطلاسم لا تؤثر ضدها ثم فاز جلالته انه دعا بأرباب مجلسه وطبيبه العمومى الذى لتشوقه لازدياد ثروة بلاد العجم بالغ بالافتخار الكلى وعلا بشهرة مملكته على نظامات وتأثيرات الاجنبى وأطنب فى قدحهم بالنسبة لما طرأ بعقله من الشكوك والمحذورات المعلومة له التى أبان فيها سببين عارض فيهما أولهما عن ماذا كان يستباح سياسيا التسليم للنظامات والهيئات الاجنبية فى تعاطى العلاج الداخلى للذات الملوكية وثانيهما عن ماذا لم يكن فى الدواء الموصوف فاعليات خفية ومهلكة ينشأ منها خطر كامن يظهر ضرره بالتدريج وينتهى بافتراس جسم عظمته الملوكية بعد ان كان يظن فيها استرداد وتقوية صحة وجسم جلالته

فبناء على هذه الاحوال قال جلالته مركز الكون بصوت عال فى هذا الوقت

لقد مر بفكرى ان الاحسن الكف عن الشروع فى تعاطى هذا الدواء وقد قصدت بنشر هذه القضية امامكم حتى بحكمتكم الفائقة وعقولكم النيرة انتظام هذا الرأى حتى يكون موافقا لعرضه امام الملك ولكى ان تستمروا فى موضوع القضية بمعلومية تامة عن الحالة عزمت بصفة قضية ابتدائية ان كل واحد منكم يتعاطى من هذا الدواء لشخصه خاصة وبذلك يمكننى ويمكن كل منكم يحكم فى تأثيراته المختلفة فلما سمعوا كلام الملك صاح الصدر الاعظم والحاضرون بالديوان قائلين ادم يا الهى الشاه مؤبدا ولا ينقص ظله الملوكى سرمدا فان سرورنا لم يقتصر فقط على أخذ العلاج بل لبذل أرواحنا فى خدمة جلالتك فنحن فدية عنك وعبيد بين يديك ونسال الله ان يهب لجلالة الشاه أعظم صحة وينصره على أعداه

فلما سمع الملك كلامهم أمر رئيس الخدمة باحضار علبة حبوب الحكيم الاجنبى من داخل الحرم الملوكى فتوجه وأحضرها وناولها لجلالته موضوعة على طبق من الذهب فدعا الملك برئيس حكمائه للاقتراب منه وأعطاه علبة الحبوب وأمره أن يبتدئ من الصدر الاعظم وما جاوره من الامراء والذوات بالترتيب على حسب رتبهم ويعطى كل واحد حبة من العلبة لتعاطيها ففعل ما أمر به الملك وبعد ان أخذ كل منهم حبة من الجرعة الموصوفة تبع ذلك توقف عام عن الكلام وفى أثنائه صار يتأمل الملك جدا بغاية الاعتناء لوجه كل واحد ليقف على أوائل تأثيرات العلاج

ولما هدأت الوجوه المعوجة كانت الدورة فى المذاكرات على مصالح أوربا وفيها سأل عظمته جملة أسئلة متعددة وأجيب عليها من الاشخاص الحاضرين باحسن ما يمكنهم من الاجابة ولم يمر غير قليل من الزمن الا وابتدأ ظهور فاعلية العلاج وذلك ان الخرندار وهو رجل هائل المنظر غليظ الجسم

كان واقفا لحد هذه الدقيقة بدون ان يتحرك ويقول (بلى بلى) نعم نعم عند مايبتدى الملك بالكلام ولم يقل غير ذلك لما اعتراه من الضعف فى هذا الوقت لان ما ابتلعه كان موجبا لقوة فعالة فى جسمه تسبب منها هياج جملة امراض ساكنة وكانت أعين الجميع شاخصة اليه حتى نشأ من ذلك ازدياد حالته المزعجة

واما كاتب السر وهو رجل رفيع طويل ونحيف الجسم قد اصفر لونه وتقاطر العرق من جميع مسام جسمه ثم تبعه ناظر الداخلية الذى التزم من سوء حالته الناتجة من تاثير العلاج الاستئذان من جلالته تاركا حضرة عظمته وقد أعقبه جميع الحاضرين بالتوالى وهم يتحركون بطرائق مختلفة عن بعضهم ماعدا الصدر الاعظم فانه كان رجلا هرما صغير الجسم مشهورا بشدة وصلابة طبيعته حيث كان يرى عليه انه كان يدارى وجهه بكمه ويضحك على مايكابده رفقاؤه الذين فى ديوانه من المشقة والمسكنة ولما عاين الشاه تاثير العلاج أمر بانفضاض المجلس وأمر مرزا أحمق انه حال ما يتحقق نتيجة كل حبة وما نشأ عنها يقدم بجلالته بيانا رسميا عن عموم الحادثة ثم قام ودخل حرمه الملوكى

(قال الحاج بابا) لقد تمكن الحكيم المهرم المكار من السلطة على خصمه لانه من كل معلوم انه قد أجاد فى بيان المسئلة جليا أمام الملك وبذلك جلالته امتنع عن تجربة العلاج المجهز من الطبيب الاجنبى وأودعت المسئلة فى زوايا النسيان حتى ان مرزا أحمق عند ما قابلنى ثانى مرة وبعد ان أخبرنى بالقصة السالفة الذكر لم يتمكن من تكتم سروره وتهليله بقوله لى لقد حاربنا وقاومنا عدونا ياصديقى الحاجى فان الكافر افتكر اننا ناجحا نين ولكن سنعلمه من هم الاعاجم ومن هو هذا الكلب حتى انه يصل لهذا الشرف السامى ويصف علاجا للشاهنشاه كلا فان هذا الامر من خصائصى فلا نبالى

باكتشافاته المستجدة ولا تفيدنا شيأ فما أخبرنا به آباؤنا من الاجراآت والتجربات فنحن نجربها بكل سرور والادوية التي شفت جدودنا تشفينا أيضا وما أمر به لقمان وابن سينا من وصف الادوية فنحن نأمر به

(قال الحاج بابا) ثم ان مرزا أحق أمرني بالانصراف ليختلي بنفسه كي يتبصر في الطرق المدمرة لمقاصد الحكيم الجديد اذا حصلت منه معارضات مستقبلة حبا في حفظ شهرته ومعارفه في الديوان الملوكي

﴿الفصل الثاني والعشرون﴾

﴿في طلب الحاج بابا من الحكيم ترتيب ماهية له ونجاح مطلوبه﴾

(قال الحاج بابا) وأقمت زمنا طويلا على هذه الحالة مع الحكيم وكانت اقامتي معه ليست بصفة خادم له بل تزيد عن مجبسة الصاحب حيث كان يأذن لي بالجلوس في حضرته والاكل على مائدته كما والتدخين من شيشته وقد تعرفت في ذلك الحين باتباعه فكنت آكل وأشرب وأتدخن معهم أيضا ولكنني تأملت ان هذه الحالة التي تستغرق زمنا مديدا من حياتي لم توافق آرائي ومستقبل آمالي فان الدراهم التي أخذتها منه هذه المدة هي القطعة الذهب فقط المذكورة آنفا وتحصلت عليها بمهارتي ولم يكن له فضل فيها وباستمرار الاشغال وتوالي الايام علمت انها آخر العطايا فلما رأيت نفسي محروما من الدراهم ولم أنل شيأ مادمت في خدمته قويت عزمي بالاستفهام منه عن الكيفية وعلى ذلك انتهزت الفرصة العظيمة لعرض شكواي وبث مصائبي اليه في اليوم الذي انتصر فيه على الحكيم الاجنبي وكان اذ ذاك آتيا من جهة البوابة الملوكية بعد أن تشرف بمقابلة الشاه الذي استعطف بخاطره بوقوفه ساعتين فقط بدون مساس بمحوار ينبوع من الجرد لا عن ستة ساعات كما هي العادة في أغلب الاحيان وذلك انه لما رآني صاح بفرح

زائد قائلا

ما أطيبه من ملك وما أحلمه وأبشه تحت قبة الفلك وياله من شفوق أنعم علي بالافضال التي يعجز لساني عن حصرها فانه سب الحكيم الاجنبي وقدح في حقه بالنسبة لمعارفي الى ان قال انه لا يليق لحفظ مدامي ثم أمر خادمه المتقرب اليه باحضار سمانتين هديه لي من صيد الصقور الملوكية

(فاجابه الحاج بابا) لقد صدق الشاه في مقالته فمن ذا الذي يضاهيك في بلاد العجم وأنت فريد العصر ووحيد الدهر فان من سعد الشاه وجودك عنده وأعظم كنز حازه في ملكه ومن هم الافرنج حتى يتداخلوا في مسئلة العلاج فان كانوا في حاجة للتعلم والعلم والشطارة فعليهم بمرزا أحمق

فلما سمع كلامي أعجبه ثنائي وتبسم بلطافة واطمئنان وأخرج من فمه شبك الدخان وناولني اياه وهو يبرم في شاربيه ويعشط لحيته وأنا مستمر في مقالتي قائلا ان شاء الله يكون لي نصيب للاشتراك في مجد شهرتك الاانى أرى نفسي كالكلب ولا اساوي شيأ كلا ولا اضاهي طينة جذور الورد فاجابني الحكيم يقول ما هذا الذهول أمعتريك جنون فقلت كلا ولكني أسمعك حكاية وأترك لك الحكم بما يتراءى لك فيها من عدلك وهي

(حكي) ان كلبا من مدة كانت هيئته وطباعه مشابهة لهيئة وطباع الذئب تقريبا حتى ان الذئاب سمحت له بالدخول في جمعياتها فكان يأكل ويشرب ويصطاد الغنم معها وبالاختصار كانت فعاله كفعال الذئب ولما يوجد مع الكلاب يعيش بمعيشتها ويجري اجراآتها ويدخل في زمرتها أيضا ولكن شيأ فشيأ رأت الكلاب أنه يجتمع بزمرة الذئاب فنفرت منه ثم وتصادف ان الذئاب أيضا اكتشفت على أمره بانه كلب حقيقي ليس منهم فلم تسمح له مرة ثانية بالدخول في عصبتها فاصبح ذلك الكلب المسكين مهجورا وذليلا بين الفريقين ولكونه لا يطيق ان يتحمل هذه الحالة

المبهمة فنوى على السلوك فى أحد الامرين اما أن يكون كلبا أو ذئبا حتى يتخلص من هذا الذل

ثم صحت قائلا (وها أنا ذا لك) لانك تأذن لى بالجلوس والتدخين معك وهما أعظم غذاء لى وتحدثنى وتشاورنى فى الامور لغاية ما أمرتنى بالدخول فى جمعيات أصحابك ولكن ما الفائدة التى تعود على من ذلك فانى مازلت خداما ولم أتمتع باحدى الفوائد لانى لا اكتسب شيأ وعلى هذا ألتمس منك تعيينى فى الوظيفة التى تريد أن تقيدنى فيها فى خدمتك وتجعل لى مرتبا فصرخ الحكيم قائلا أحقيقة تطلب مرتبا انى لا أعطى مرتبات أصلا فان أتباعى يأخذون ما يمكنهم من مرضاتى فافعل مثلهم وانهم يأكلون ما بقى من مائدتى ويأخذ كل واحد جبة سنوبا فى عيد النيروز فما الذى يلزمهم زيادة على ذلك

(قال الحاج بابا) وبينما الحكيم فى لهجته اذ دخل عليه أحد مشاة الشاه حاملا على يده صينية من الفضة موضوعا عليها السمانتان اللتان اهداهما الشاه للحكيم وناولهما بغاية الاحترام اليه فقام من كرسيه ووضع الصينية فوق رأسه داعيا للملك باعلى صوته قائلا اللهم أكثر خير جلالته وزد عزه وأطل لنا عمره وبعد ذلك أراد أن يعطى الرسول هدية فارسل له خمسة غروش فردها الرسول باحتقار فارسل له تومانا فلم يقبله أيضا ثم استقر الرأى أخيرا بعد اليأس على اعطائه خمسة تومان حيث هذا المبلغ وجد لائقا به فاخذه وتوجه لحال سبيله وهذه الحالة السيئة أضعفت سروره الناتج من الهدية حتى ان الحكيم تفوه ببعض ألفاظ غير لائقة لو تبالغت لمسامع الملك لكانت سببا لوقوعه فى تعب شديد ومن ذلك قوله متعجبا باحتقار ما هذه الهدايا ولا حاجة لى بها فانى أتمنى أن تكون مثل هذه الهدايا فى الآخرة لاننا جارين دفع أجر باهظة نظير ذلك لاتباع الملك وهم عصبة من القوم اللئام الطماعين الذين أزالوا عن وجوههم برقع الحياء ويطلبون

الاحسان بدون شفقة أو بخل والادهى من ذلك ان لم ندفع اليهم مايرضيهم والا فنكون تسببنا لانفسنا فى الاضرار وانذارنا بمستقبل الانتقام وحينئذ لانجد من راحم يأخذ لنا بناصر فانى لا أنسى ماقاله السعدى فى حكمه بانذ لا تأمن لصحبة عظيم وأمن لمرافقة الفطيم فان الاول يغدر عليك من أوهى الامور والثانى يغدر بعض الليل وبالنهار اليك يميل

(قال الحاج بابا) لقد امتلأ الحكيم رعبا وانزعاجا زائدا مما زلف منه من افتتاح كلامه بالفاظ غير لائقة حتى انه مما حاق به الخوف الشديد وضيق الدنيا أمامه قبل على نفسه خسارة الخمس تومان وتجنب ما كان يبديه من الملام خوفا من أن تكون عاقبته عليه بالتلف والخسران فلما رأيته على هذه الحالة استحسنت عدم مفاتحته الآن فى موضوع طلباتى وأن أؤجله لفرصة مستقبلة الا اننى قصدت فى سرى ترك خدمة لقمان عصره عند وجود وظيفة فى جهة أخرى وأن أرضى بحالتى الحاضرة التى لم تعد بمثابة كلب ولا ذئب

﴿الفصل الثالث والعشرون﴾

(عدم اقتناع الحاج بابا بوظيفته واهماله ووقوعه فى العشق والهيام ومكابدته لواعج الغرام)

(قال الحاج بابا) ولكونى غير مقتنع بقسمتى الحالية وجاهلا بمقاصدى المستقبلة فكانت أيامى تمر بالكسل الكلى والاهمال فى تأدية أشغالى لعدم رغبتى فى اتباع خدمة الطب التى تحصل عليها كثير من الناس قبلى بمجرد ارتكانهم على أساس واه لا يأتى بفائدة عظيمة لمستقبلهم كما حصل لى الآن الا اننى اعتنيت قليلا بالتفاتى لبعض من معلومات مرزا أحمق ولولم تحصل لى الحادثة التى نشأت من حالة اقامتى الغير مناسبة وتسبب عنها

تأخيري بمنزله لكنت تركت خدمته بوقتها وبحثت على محل آخر وتركت السعي والاجتهاد وقلت من قلة حيلتي ماينفع المال اذا كان العمر فانيا وتمثلت بقول القائل

لاشئ مما ترى تبقى بشاشته * يبقى الاله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه * والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجرى الرياح له * والجن والانس فيما بينها ترد
أين الملوك التى كانت نوافلها * من كل ارب اليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب * لابد من ورده يوما كما وردوا

وهذه الحادثة قد أوجبت لى حاسيات أبطلت كلية ماعندى من الافكار التى كنت أتدبرها لمستقبل معيشتى وأصبحتنى عبد رق لديهم فكنت أقاسى منهم أليم العذاب وأتحمل من حركاتهم شديد اللوعات حتى اعتقدت حقيقة ان المجنون مهما بلغ فى الخبول لايفوق عنى فى الجنون وانى بعد هذا كله لاحاجة للتوضيح بان أقول انى وقعت فى شرك الهوى

أرى التحمل شيأ لست أحسنه * وكيف أخفى الهوى والدمع يعلنه
أم كيف صبر محب قلبه دنف * الهجر ينحله والشوق يحزنه
وانه حين لاوصل يساعفه * يهوى الملول ولكن ليس يمكنه
وكيف ينسى الهوى من أنت همته * وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

فان الحب لايخفى على الصب وكفى قول من قال

للحب نار على عينى مضرمة * لم تبلغ النار منها عشر معشار
الماء ينبع منها من محاجرها * بالله رجال لماء فاض من نار

ولكن لم يكن لى حيلة الآن الا السكوت والرضا بما أنا فيه حتى أنظر مايكون من مستقبلى وأنا أصبر نفسى بهذين البيتين

ألا يانفس ان ترضى بقوت * فانت عزيزة أبدا غنيه
دعى عنك المطامع والامانى * فكم أمنية جلبت منيه

والسبب فى ذلك كله هو انه لما انتهى فصل الربيع وأقبلت علينا حرارات أوائل الصيف التى تؤثر فيهم أوجبت أغلب سكان المدينة بنقل مفروشاتها على أسطحة منازلهم للنوم عليها واستنشاق النسيم اللطيف واكونى لا أرغب أن أمضى ليلتى مع الخدامين وهم الفراشون والطباخ الذين أغلب رقادهم سوية فى محل أرضى فللقضاء والقدر فرشت فراشى على جانب سطح يطل على حوش منزل الحكيم الداخلى الموجود به مساكن النساء وهذا الحوش كان مربعا وجميع شبابيك المحلات محيطة به من الاعلى ومزروع فى وسطه أشجار الورد والياسمين والحور وغير ذلك ويتخلله من الوسط كوشك مربع من الخشب يفرشونه بالمراتب للجلوس فيه وقاية من الحر الشديد وقد نظرت جملة من النساء جالسات متفرقات فى جوانب الحوش ولم يحصل لى أدنى تأثير منهن أو انجذاب قلبى مطلقا لاحداهن وبذا لا التفت اليهن وبحيث لو داومت على ذلك لحرمت من مشاهدتهن ولو اكتشفن على أمرى لتراكمت على المسبات واللعنات من كل جانب ويدعونني باقبح مايمكنهن من الالقاب

وقد حدث فى احدى الليالى بعد غروب الشمس بينما أفرش فرشى اذ لمحت بالصدفة من خرق بور السطح مشقوق للسقف امرأة مشتغلة فى توضيب ونشر ورق الدخان وكان برقعها الازرق ملقيا على رأسها قليلا وعندما همت للقيام وهى منحنية فكانت ضفائرها المسترسلة فوق جبهتها سائلة بروتق لطيف جدا مغطية وجهها تقريبا الا أن أغلبه مكشوف حتى ان هذه الهيئة أوجدت لى شوقا زائدا لمشاهدة باقى وجهها حيث كل ما رأيته فيها يشير على جمالها وحسن قوامها فكانت صغيرة اليدين مصبوغة بالحناء

وكذلك صغيرة القدمين وشكلها وصفاتها تدل على شدة حسنها وظرفها فتفرست فيها مليا ولم أتمالك نفسي من النظر اليها لما لحقني من هواها ومشاهدتي حسن محياها فلما أضرمت نار حبها في فؤادي صحت متأوها من شدة العذاب لعلها تشفيني برد الخطاب وعندما سمعتني تطلعت نحوي في الحال فاخذها الخجل والخبال ومدت يدها تستر وجهها ببرقعها فتمكنت في أثناء تغطيتها اعشاهدة قوامها الفتان وجمالها الهتان حتى أصابتني بسحر عينيها واشتعل اللهيب في قلبي من ورد خديها وقد سترت نفسها بغيظ ظاهري لاني شاهدت انها كانت تساوي برقعها باجل وضع وأحسن صناعة حيث انها تركت محلا كافيا مظللا حول عينيها المتلألئة تنظرني بهما وتشرح هيجاني وتزيد توقد نيراني

ومانسيت وما أنسى تبسمها * وملبس الجوّ غفل غير ذي علم
حتى اذا طاح عنها المرط من دهش * وانحل بالضم عقد السلك في الظلم
تبسمت فاضاء الجوّ فالتقطت * حبات منتثر في ضوء منتظم

فلما استمريت متطلعا اليها باهتا من ثبل مقلتيها وهي مع ذلك مشتغلة بما لديها ضجرت مني وقالت بعدان انثنت كالغصن الرطيب ومالت ماسبب نظرك ألم تعلم أنه حرام وموجب لارتكابك الآثام فحت قائلا لها ياقرة العينين وحق الامام الحسين لانحرميني من هذا القوام فليس في العشق من حرام فان عيوناك السود كوت فؤادي وتبدل نومي بالسهاد فبحق أملك وغربتي في البلاد تسمحي بنظرة بجميل محياك وتحيي فؤاد عبد أمسى من أسرك فاجابتني بصوت أرق ونغمة ألين من ضرب العود بل أدق لماذا تسألني لتنظر لوجهي وأنت تعلم حرمة ذلك وما ينتج منه من المهالك وتحريم الاجنبية على الاجنبي وأنت لست بزوجي أو أخي أو أبي سيما لا أدري من أنت ومن أي البلاد أنيت ألم يأخذك من ذلك عار حتى

تخاطب جارية من ذوات الحشمة والاعتبار فما أتمت كلامها الا وسقط عن وجهها لثامها مظهرة عدم التعمد فى وقوعه فتملیت من مشاهدة وجهها وجماله وما حوى من الحسن الذى ما كنت أتصوره بتمامه فهمت بوصفها قائلا

لله ابنة ظبيـــة صادفتها * فسبت فؤادى بالجمال المفرد
مذ أرسلت لحظا وماس قوامها * صرت القتيل بعامل ومهنـد
لما رأتنى هائما فى حبها * كشفت قناعا عن محياها الندى
فنعمت فى روض الجمال بنرجس * من لحظها و بخدها المتورد
كملاه زجاء الحواجب ان رمت * عن قوسها سلبت فؤاد الاصيد
والانف مثل السيف زاه حسنه * والثغر بالدر النفيس منضـد
ولها عقيقة مرشف من تحتها * وشم يضـــل بناسك متعبد
فضح الهلال جبينها لما بدا * من تحت طرة شعرها المتجعد
طالعت فى الغزل الرقيق فلم أجد * كصفاتها او أظنها لم توجـــد
كم تاه فى ليل الذوائب عاشق * لولا السنا من وجهها لم يهتد
لو يسمع الشعراء حسن حديثها * لنسوا به طربا ملاحن معبد
لو أنعمت يوما بأيسر نظرة * أهدت شفاء للعيون السهد
فوددت من طربى أطير تولعا * كيما أفوز بلمس قدأغيـــد

فازداد شوقى نحوها وكدت أقترب منها لولا سماعى اسم زينب يتكرر المرار بلا اصطبار بصوت عال رنان فلما سمعت معشوقى اللطيفة قامت من مكانها وذهبت لمن ينادى لها أما أنا فتسمرت فى محلى الذى نظرتها منه أولا وانتظرت مدة طويلة مؤملا عودتها فلم ترجع فالقيت آذانى أستنشق خبرها بين الصيحات الحاصلة فما سمعت شيأ عنها الا صوت غضوب يتردد بعنف وقسوة يتهدد ويرعب النسوة فعلمت انه لا شك صوت زوجة الحكيم وهى

امرأة يقال عنها انها أقل جمالا من أهلها وان زوجها المسكين فى قبضة يدها وخاضعا لامرها

فلما انتهى النهار وأتى الليل بالاعتكار وقت لتجهيز فراشى وأنا قاطع اليأس من عودتها اذ سمعت ثانيا صوتا يقول يا زينب أين تذهبى ولماذا لم تدخلى لفراشك

فطرق بسمعى جيدا جواب معشوقتى وبحال تذكرى ما وقع منها نظرتها على السطوح فحصل فى قلبى خفقان وضربات زائدة وعزمت على نط السور الفاصل بيننا فلم يمنعنى عنها الا كونى رأيتها أخذت سلما وأدخلتا وتأخرت بسرعة والتفتت نحوى وقالت بنغمة رخيمة الصوت موعدنا باللقاء غدا فى المساء ثم مالت وانثنت وعن عينى اختفت فاضطرم فى جسمى اللهيب من حسن ألفاظها ورقة نغماتها بحالة لم يسبق حصولها لى وكأنى أخاطب بقول القائل

صادتك من بعض القصور * بيض نواعم فى الخدور
حور تحور الى صبا * لك باعين منهن حور
وكأنما بثغورهن جنى الرضاب من الخمور
يصبغن تفاح الخدو * د بماء رمان النحور

هذا ولم أمل من تكرار ما قالت وأنا أترنم أبياتا بما وعدت

وافت وقد رأت العذول بمرصد * فثنت وأومت بالتلاقى فى غد
يا حسنه وعدا ولكن قبله * ليل يطول بلوعة وتسهد

ثم لعبت بى أيدى الغرام وأوردتنى مناهل العشق والهيام وهى تخيل لى ما كان من معشوقتى

سألتها حين زارت نضو برقعها * فصافنى وابداع سمحى أطيب الخبر
فزحزحت شفقا غشى سنى قمر * وساقطت لؤلؤا من خاتم عطر

فلما جن الليل واشتد بي الهيام تبحرت في بحر الغرام وكنت كلما أخوض لجة تزداد النار في فؤادي اضطرام حتى غشي علي ولم أدر بنفسي وسقطت ملقيا على فرشتي وقد أيست من انقطاع نفسي ولم أنيقظ الا في الصباح ففتحت عيني ووجدت أشعة الشمس في وجهي

﴿الفصل الرابع والعشرون﴾

﴿اختلاء الحاج بابا بمعشوقته زينب اللطيفة ومسامرتها معه عن حالتها وصرف أوقاتها بمنزل الحكيم﴾

(قال الحاج بابا) فقلت في نفسي بعد مسح عيني من النوم أهكذا أقع في المحبة ولكن صبرا حتى أنظر ما ينتج منها وأسألها هذه الليلة عن حالتها وصفتها وكيفية معيشتها واذا وجدتها من جواري الحكيم فبخراب بيته ان لم أعلمه كيفية التحفظ على أمتعته أما من جهة الزواج فيستحيل لرجل أن يعرض ابنته أو جاريته لزواجي لاني لحد الآن ليس لي مقدرة لشراء لباسين أستتر بهما وغير ذلك فانه يلزمني على الاقل القيام بمصاريف الفرح ولكن عشمي من الله سبحانه وتعالى حصول ذلك عند اقتداري على جمع بعض دراهم وليس لي الآن الا التحيل بالطرق العشقية التي يلتزم بها الحكيم على دفع المصاريف

ثم قمت من فراشي بهذا العزم ولبست ملابسي بغاية الاعتناء فوق العادة ومشطت ضفائري وصلحتها باحسن وضع وساويت حزامي جيدا ووضعت طربوشي على رأسي مائلا من جهة ولففت فرشتي وحملتها الى قاعة الخدامين وخرجت الى المنزل قاصدا الاستحمام ليزداد رونق حلاوة وأستعد لاستقبال هذا المساء ومقابلة معشوقتي الحسناء

فتوجهت الحمام وأمضيت فيه أغلب النهار بالغناء والترنم بالاشعار ومشيت

أتسلى فى شوارع المدينة أصرف الاوقات لاقتراب الميعاد وأنا طائش العقل لا ألتفت لشئ

هى شمس النهار فى الحسن الا * انها فضلت بفتنة الطراف
غضة بضة رخيم لعوب * وعشة المتن تحتة الاطراف
زانها دلها وثغر رقيق * وحديث مرتل غير جاف

ومازلت على هذا الحال حتى انقضى النهار وقل منى الاصطبار ولم أنتظر فقط الا (الشام) أكل المساء وبعده ادعى بالم فى رأسى وأطلب راحتى ولكن من سوء حظى تأخر الحكيم زيادة عن عادته فى خدمة الشاه ولما حضر وانتهى الطعام وتقدم مابقى للخدام وجدت الوقت أزف فزاد مابى من الشغف حيث أخذت الشمس فى الاصفرار والافول وماوصلت السطح وفرشتى تحت ذراعى الا وغابت الشمس وأضاء القمر فطرحتها وفرشتها وجريت وأنا خافق الى الحائط المخروق لانظر معشوقتى فتطلعت منه وخيبتى التامة لم أر أحدا غير اكوام الدخان متلخبطة وسلال منتشرة بحالة غير منتظمة يرى منها عدم انتهاء بعض الاشغال فنظرت لزوايا المكان يمينا وشمالا فلم أجد زينب ونفخت مرة ومرتين فلم أسمع أحدا الا صوت زوجة الحكيم كان يطرق بآذانى وهى تتسلط بقوتها على احدى الجوارى فى منزلها ومع ارتفاع صوتها للسماء واختراقه الاسوار الا انه ما كان يمكننى الوقوف على سبب غضبها وهيجانها لهذا الحد من شدة لهجتها فى الصياح ثم اقترب صوتها نحوى وخرج من المنور فسمعتها تقول

أتكلمينى عن الشغل يابنت الشيطان ومن أمرك بالتوجه الى الحمام وما الدواعى الموجبة لذهابك الى القبور فاظن انى أنا جاريتك وأنت تفعلى ما يشرحلك وما السبب لعدم نهوشغلك فاعلمى انك لا تأكلى ولا تشربى ولا تنامى مالم تخلصيه فاذهبى حالا اليه وان أتيت قبل خلاصه فوالله وبالله

والنبي لاضربنك على رجليك حتى تتساقط أظافرك
(قال الحاج بابا) ثم تلا ذلك الصوت الشديد طرد وتهديد وفي الحال لمحت معشوقتي اللطيفة آتية الى مكانها والحزن ظاهر على وجهها وكنت في هذه الدقيقة أيست من مشاهدتها وتهنئتي بحضرتها وقد قام بي من الهيجان ما أوقد بجسمي النيران فانشأ لسان حالي يستعطف خاطرها حيث قال

أزينب لا تصغي لقول المفند * فليس عذول في الغرام برشد
أزينب ان طال التهاجر بيننا * خف الله في قتل المحب المسهد
أزينب ان أضنيت جسمي كاتما * لطول الضنا أغريت بالنوح عودي
أزينب مالي في الصبابة منصف * سوى الوصل ان الوصل منك لمسعدي
أزينب ان القيد يبدو كعاطل * ولحظك بسط مثل نصل مجرد
أزينب مهلا ليس بالقلب مسكة * فيقوى على رمح وسيف مهند
أزينب ان لم تسعفي الصب بالمنا * وتوفي فما طيري الغداة باسعد
أزينب أفديك بنفسي وأسرتي * وأهلي ولا أرضى طريني ومتلدي
أزينب مذ قلت الغداة لقاؤنا * فبت وكم حن الفؤاد الى الغد
خليلي ان الصب صعب مرامه * وان بات في وعد وفي غير موعد

وقد تبين لي ان ما أجرته معشوقتي من الحيل والتدبيرات واستمرارها بدون ان تخشى عاقبة أمر مخيف هو بقصد اجتماعنا وان كانت تظرتني الا انها لم تلتفت نحوي لحين انقضاض الصباح الحاصل في بلوغ سيدتها
هذا وبعد ان سكن الصباح أومت الي بالحضور فلا يخفى على ذهن المطالع حالتي في هذا الوقت وتلهفي فاني أسرعت لجانبها في أقل من طرفة عين ولم يعلم مقدار ما تدار كنا من الفرح والسرور لما نحن فيه من الهيام الا الذين كابدوا العشق وقد ظهر لي من سياق حديث معشوقتي انها ابنة أحد رؤساء

الاكراد استأسر مع عائلته وخدمه ومواشيه وكانت اذذاك حديثة السن لاتدرك شيأ ومن ضمن حكايتها التي ستقصها انها وقعت في يد الحكيم الذي هي الآن جارية له

ولما هدأ ما جاش من هيامنا واطمأن خاطرنا بلقائنا ابتدأت زينب تذكر ما تم من الكدر الناشئ من سوء معاملة سيدتها الآن فقالت

(آه) ألم تسمع ياحاجي ما نسبتي اليه تلك المرأة عديمة الايمان فهكذا معاملتها لي دواماوهي لاتمل من لعني وتعنيفي حتى أصبحت أقل من الكلب وكل واحدة تهزأ بي وتسخر علي ولا يقترب مني أحد وقد ذاب كبدي وصار كالماء وآلت روحي تبلغ التراقي ولم أعلم الموجب لنسبتي بابنة الشيطان وأنا كردية ويزيدية وحقيقة أخاف الشيطان وأتوقاه ومن الذي لايخافه الا انني لست ابنته (لان اليزيدية قبيلة من الاكراد ويقال انها تعبد الشيطان) آه وا أسفاه لو كنت أقابلها على جبلنا لترى ماذا تفعل البنت الكردية من القوة والشجاعة ثم بكت وأنت واشتكت ولسان حالها يقول

يادهر ويحك كم أطلت تلهفي * وتشوقي للاهل والاوطان
اذ كان فيك أبي زعيم عشيرة * وأشدهم بأس اليوم طعان
يحمي النزيل نهاره وبليله * مانام غفلا عن قرى الضيفان
واها لعز كان يعهد انه * مالا يصاب بطارق الحدثان
فعدت عليه الحادثات بغزوة * شعثاء ما كانت على الحسبان
ظفر العدو بها وساعده القضا * فاستأصلت بالاهل والاخوان
ياويل قلبي من خطوب فرقت * من شملنا بددا بكل مكان
أودى أبي واستأسرت أمي وقد * حلت بشاسعة من البلدان
وغدوت في أيدي الذي يستامني * من بعد عز ذلة بهوان
فعسى الهي ان يمن بجمعنا * ماخاب عبد لاذ بالرحمن

فاجتهدت فى تسليتها بقدر امكانى وتلطيف غضبها الحين ماتمكن من فرصة تنتقم منها بنفسها فاستطالت حصول هذا الامر كليلة لترقبهن الزائد الى جميع أفعالها وسيرها وانها لاتسلك من أودة الى أخرى بدون علم سيدتها ثم قالت زينب ان أصل زواج سيدتى بالحكيم هو ان الملك غضب على احدى الجوارى (وهى سيدتى) فطردها من الحرم الملوكى لسوء سلوكها وأمر انها تتزوج باقل الناس فلم يجدوا غير الحكيم فتأهل بها ولم تدخل له بشئ من النفائس سوى قبح الطبع وحزء عظيم من الكبر تظهر به سلطتها السابقة فى حرم جلالته ولذلك فانها تعتبر زوجها الحالى أقل قيمة من التراب الذى تحت قدميها ومتسلطة يكبرها عليه وهو فى يدها بحالة يرثى لها من الخضوع والذل وانه لايتجاسر بالجلوس فى حضرتها مالم تؤذنه ولايكون ذلك الا نادرا بخلاف مابها من الغيرة الزائدة ولم توجد جارية فى حرمها الا ويدا خلها الوسواس من جهتها الشدة غيرتها

ومن وجه آخر فان الحكيم الذى ازداد طمعه واكتنى برفعة شأنه وعلو قدره أصبح عرضة لاوهان الطبيعة البشرية وبذا صار لاحظ له ولا احساس بميل طبيعته لمشاهدة محاسن وقدود جواريه الحورية وقد أخبرتنى زينب نفسها انها كانت فى أوائل الامر مطمح انظاره وافكاره الوحيدة وبذلك لاتسمح له روجته من شدة غيرتها بالنظر أو الاشارة اليها بشئ ولو بمجرد الايماء بخلاف ماهو حاصل من التجسس الكلى فى الحرم عند توجه زوجة الحكيم الى الحمام أو الجامع فانها تحترس جدا بان توزع الجوارى على الاشغال كما تقتضيه الظروف والاحوال مثل مايصير تجهيز استعدادات لاعمال فرح ونياط كل منهن بأمر

(قال الحاج بابا) ولكونى لم أر مطلقا مصالح داخلية مثل هذه أكثر مما رأيت منذ صغرى فى منزلنا لحد الآن فاخذنى العجب من ذلك والذى

أدهشني زيادة هو ما سمعته من ضمن تاريخ حياة زينب اللطيفة في منزل الحكيم وهو

(قالت زينب) اننا خمسة جواري بخلاف سيدتنا داخل الحرم وهن شيرين (أي الجميلة) الجارية الجرجانية والشابة نورجهان (أي نور الدنيا) الجارية الحبشية وفاطمة الطباخة وليلى العجوز القهرمانة أما وظيفتي فهي بصفة خادمة أمام الخانم (وبذلك تسمى سيدتي لان معتبري العجم يلقبون زوجاتهم بهذا الاسم) ومما يجب علي أداؤه التفاتي لشبكها ومناولتها القهوة وادخال الطعام وتوجهي معها الحمام وتلبيسها وتقليعها ومسح ملابسها وتصليحها وفرك التبغ ووقوفي امامها

أما (شيرين) الجرجانية فهي بصفة صندوقدار (حافظة المنزل أو خزندارية) ومن خصائصها التفاتها لملابس سيدي وسيدتي بل وملابس عموم الحرم أيضا وملاحظة المصاريف وتخزين غلال المنزل وما يلزم من المؤنة وفي عهدتها الصيني والفضة والاواني وبالاختصار فانها مختصة بكل أمر سواء كان ذا قيمة أو من متعلقات العائلة

أما (نورجهان) فهي لوانجية (فراشة) وعليها تنظيف الاوساخ وفرش السجاجيد وكنس الادوار وش الحوش ومساعدة الطباخة وتحمل البقج والرسائل وانها معدة لمساعدة كل من يدعوها

وأما (ليلى) العجوز فهي بصفة كيخية (رئيسة) على جميع الجواري ومصلحتها خارج المنزل فانها تقوم بقضاء المهمات الصغيرة التي تلزم للخانم من عائلات المنازل الاخر والمظنون فيها انها جاسوسة على أحوال الحكيم وسلوكه في الحرم وهكذا تنقضي علينا أيامنا بالمجادلات والمشاجرات المكدرة وانه في بعض الاحيان يتحد جاريتان منا مع بعضهما ويتفقا غاية الاتفاق بالصحبة المتينة على مضادة رفقائهما بقصد طردهن وحرمانهن

من التفات سيدتهن
والآن حاصل بيني و بين الجارية الجرجانية شقاق عظيم وسبب ذلك انه لما تمادى عليها الزمن ورأت ان أيامها انقضت عليها بالشؤم وعدم القبول عند سيدتها عملت كل حيلة للحصول على حجاب محبة من أحد الدراويش وبعد استحواذها عليه في أسرع مدة لم يتم ثاني يوم الا والخاتم أهدتها بصلطه وقد أوجب هذا الامر عندي غيرة شديدة حتى بذلت مافي وسعي للاتفاق مع الدرويش بان يكتب لي حجابا يسبب لي زوجا صالحا وفي مساء ذلك اليوم الذي أحضره لي الدرويش نظرتك على السطح فاستبشرت بتحسين حالتي وقد وقعت مسئلة أسست بيني و بين شيرين المنافسة وكانت عاقبتها البغضة والعداوة وأصبحنا الآن من أشد الاعداء نتمنى موت بعضنا بعضا انما يحتمل في زمن مستقبل العودة للمحبة ثانيا في لحظة واني الآن في غاية الصحبة الثابتة مع فورجهان وبالنسبة لاغرائي لها فهي جارية القاء الفتن والدسائس للخاتم واخبارها بوقائع قبيحة ضد عدوتي المذكورة
أما السبب الناشئ عنه هذه العداوة هو انه تصادف في احدى الايام اعمال بعض حلويات وفطورات في السراية الملوكية ولندرة صناعتها أرسلت احدى حرم الشاه جزأ منها هدية لسيدتنا فامر تنابا تحفظ عليها فتسلطت عليها الفيران وأكلت منها قسما كبيرا ولما سئلنا عن ذلك نسبنا الاهمال والذنب الى الجرجانية فغضبت سيدتنا لهذا الامر واغتاظت منها وأمرت سيدتنا فورجهان بضربها فالقوها الجواري على الارض وقامت فورجهان بامر سيدتها
وأما أنا فكسرت كأس الشرب تعلق سيدتي وكان عزيزا عندها فاصدقت ان رأت شيرين ذلك الا وأبلغت سيدتها وأرتها اني أنا المتسببة في كسره فالزمتني بشراء كأس غيره واني أعلم انها مازالت للآن تلقي الفتن وتدس

الدسائس ضدى تظرا لتقربها من ليلى وصحبتها معها لكونها محبوبة عند سيدتنا فى هذه الايام ولذا فانى فى غاية الاحتراس من عدم أكل وشرب شئ من يدها خوفا من السم وهى تقابلنى أيضا بمثل ذلك ولم تبلغ درجة التسمم هنا فقط لا بل فان عموم العائلات الاخر يتخذون الاحتياطات عند حصول مايماثل هذا الامر بينهم

وأيضا قد وصلت المسئلة من مدة أيام لضرب بعضنا بالكفوف لانها فورت غضبى وهيجتى ببصقها على وقولها لى (لعنت بى شيطان) اللعنة على الشيطان تريد بذلك اغاظتى ولا يخفاك ياحاجى ان هذه أعظم مسبة لليزيدية فاشتد لذلك غضبى وطار عقلى وهجمت عليها ودعوتها باقبح الاسماء التى تعلمتها باللغة الفارسية ولويت شعرها على يدى وجذبته فقلعته من جذوره ولم يفرق بيننا الا (ليلى) التى كان لها نصيب من المسبة بعد ان استمرينا نلعن وتسخر بعضنا مدة طويلة حتى يئست أزوارنا من شدة الغضب والصراخ وكدنا نقطع النفس وقد هدأ روعنا وشفى غليلنا الحد الآن بهذه المشاجرة ولكن كراهتها الى الآن لم تنقص لانها مازالت تظهر سلطتها فى النميمة ضدى فى أى وقت تتمكن من القائها للخانم بواسطة صاحبتها ليلى

(قال الحاج بابا) ومازالت زينب تتسامر معى بهذه الحالة بقصد تسليتى حتى لاح الفجر الاول وسمعنا المؤذن يؤذن فى الجامع لاجتماع المصليين فاستحسنا مفارقة بعضنا خوفا من كشف سترنا بعد ان تواعدنا بالمقابلة فى أى وقت يسمح لنا بذلك واتفقت معى انها عند ما تجد وقتا بواسطة تدبيراتها التمكن فيه من اجتماعنا ثانيا فتعلق برقعها على فرع شجرة فى الحوش أتمكن من نظره من السطح وان لم أجده فيكون ذلك دليلا على عدم المقابلة تلك الليلة وافترقنا بهذا الشرط

﴿الفصل الخامس والعشرون﴾

﴿اجتماع العاشقين ثانيا وما حصل لهما من الانبساط وانشاد الحاج بابا الاشعار﴾

(قال الحاج بابا) فطلعت فى مساء الغد على السطح مؤملا رؤية ما بيننا من الاشارات التى اتفقنا عليها ولكن تأسفت جدا لعدم رؤية البرقع معلقا على الشجرة فجلست على الارض قاطع اليأس ولم أر الدخان وآلات التنظيف فى محلها ووجدت البيت ساكنا ليس به صوت آدمى لا ولا صوت زوجة الحكيم الذى لا ينقطع مطلقا فمكثت فى هذا الوقت أترقب سماعه حيث تهيأ لى انه أطرب وألذ صوت موافق على وجه الارض لتلذذى بسماعه وان الطبيعة البشرية فى حاجة اليه وأيضا رنة النعال التى لا أشك فيها انها ناشئة من دبيب ليلى العجوز اذ انها علامة على وجود أحد بالمنزل

ومازلت على هذه الحالة حتى طرق آذانى بالتعاقب صوت موسيقة الملك على بعد وضرب الطبول وقعقعة الترمبيطات وكان كل ذلك دلالة على غروب الشمس وبعدها سمعت جملة مؤذنين مختلفة يدعون المصلين لصلاة المغرب هذا ومعظم افكارى متجهة للوقوف على خبر معشوقتى

واستمريت منتظرا حتى سمعت أيضا طبل الضابطة تأمر الناس بقفل دكاكينهم وتوجههم لمنازلهم وكذلك كنت أسمع مناداة الدورية التى تحفر الملك على أسوار السراية من مسافات بعيدة وقد جن الليل واحتبك الظلام ومع كل فان منزل الحكيم فى غاية السكون ولم أشعر بدبيب أحد فيه فقلت فى نفسى يا ترى ما الداعى لذلك كله فلو فرض وتوجهوا الحمام فانهم لا يتأخرون لهذا الوقت ومع ذلك فان حمامات النساء لا تفتح الا فى الصباح فقط انما لابد وانهم جاريين اعادة مريض أو توجهوا فى عرس أو ولادة أو لربما توجهوا

للدفن أو يحتمل ان الحكيم أتت له داهية وبينما أنا على هذه الحالة وقد قتلت نفسي من الافكار اذ سمعت الباب يطرق بقوة على حين غفلة وبمجرد فتحه قعقعت الشباشب وعلت أصوات جملة نساء مختلفة ومن ضمنها صوت الخانم المشهور يدمدم ويهمهم عليهن كالصاعقة وكان بينهن جملة فوانيس من الأمام والخلف وقد أظهر لي نورها هيئة النساء حتى انه بحال رفع براقعهن من فوق وجوههن تحققت من مشاهدة زينب معشوقتي

فقلت في نفسي لابد من الانتظار لعلي أحظى وأتبارك بمؤانستها قليلا حتى ظهرت بقوامها المباس وسارت نحوي بكل احتراس بقولها ان دواعي الاحوال تمنعنا عن المجانسة في هذا الوقت ولا يمكنها التأخير وانها تجتهد في تدبير حيلة للاجتماع في وقت آخر ثم أخبرتني بغاية الايجاز ان أسباب خروجهن هو أن سيدتها أتاها خبر أختها وهي احدى السنات الموجودات في سراية الشاه انها فاجأها المرض وقضى نحبها الساعة والمظنون ان موتها تسبب عن تعاطي السم بواسطة أحد أعدائها وانها أخذت جميع جواريها صحبتها لكي ان تزيد بهن غاغة الحزن الذي تعودوا على اجرائه في مثل هذه الاحوال وتوجهن وقت الظهر وصرن يصحن ويصوتن بقوة وقد امتلأ الجو بصياحهن وكاد أن يتخرق الهواء من ضجيجهن ومارلن على هذه الحالة حتى اخشنت وبحت أصواتهن وان سيدتها من قت ملابسها تريد بذلك أداء فروض التعزية للعزاء وانها لما تأملت في الفستان الذي عليها انه ذو قيمة عظيمة أمرت بشق فلقتين أو ثلاثة منه وبما ان تشييع الجنازة سيكون في ثاني يوم فضروري من وجودهن من صباح باكر هنالك للاستمرار في اقامة المحزنة ثم قالت زينب على قبول المزاح ان سيدتي ستأخذ مكافأة لها على هذه المصلحة منديلا اسود وتأكل الحلوى وعلى ذلك انصرفت معشوقتي بعد ان وعدتني انها ستبذل غاية جهدها في ايجاد

فرصة للمقابلة فى مساء الغد ونبهتنى بالالتفات للاشارة المعلومة

ولما أصبح الصباح وقمت من فراشى وأنا شاخص بجهة معشوقتى فاندهشت جدا لرؤية الاشارة فى هذا الوقت ثم لمحت زينب تشير لى بالذهاب لصوبها فما صدقت ان أسرعت بالنزول من السطح كالطائر اليها من السلم التى كانت تستعمله للطلوع عليه ووجدت نفسى فى لمحة واحدة واقفا فى وسط الحرم فلما أفقت من سكرتى هذه ورأيت نفسى انى فى مكان لا يسمح لاى انسان مهما بلغ فى الوقاحة أن يصل اليه تلبسنى الخوف والانزعاج الشديد ولكن بالنسبة لما كانت تسكن به روحى معشوقتى وتطمن خاطرى بحسن لطافتها ورقة ألفاظها قويت نفسى وتبعتها

ثم قالت تفضل يا حاجى ودع عنك الخوف والجزع فلا أحد هنا حلاف زينب معشوقتك وان أسعدنا زماننا فنتانس يومنا باجتماعنا فى غياب عوازلنا فاجبتها وقد أخذ العجب منى كل مأخذ كيف فعلت ذلك وهل يتأتى منك لهذا الحد فاين الخاتم وأين النساء وان لم يكن هنا فكيف الفرار من مخالب الحكيم

فقالت زينب مكررة لا تخف يا حاجى فانى أغلقت جميع الابواب ولو تصادف وحضر أحد فالوقت كاف جدا لهروبك قبل الفتح لهن فلا تخش أمرا من هذا القبيل لان جميع النساء توجهن للجنازة واما من جهة مرزا أحمق فان سيدتى فى أمان من عدم حضوره فى مثل هذه الاحوال بالنسبة للاحتياطات الكلية التى تجريها نحوه ولكونى الآن بالمنزل بمفردى فلا يتجاسر أن يقترب من منزله على بعد فرسخ

ولتعلم يا حاجى بما أراه فيك من الاندهاش العظيم المتلبس بكل جسمك ان جميع ما قدر علينا لابد من انفاذه عما قليل وان أول ساعة رأينا بعضنا فيها لاسعد الساعات حيث من بعدها جميع الامور متيسرة لنا وكل ما نطلبه

نجده سهلا والسبب فى ذلك هوان الجارية الجرجانية عدوتى أدخلت فى فهم الخانم مسئلة تخصنى اذ قالت لها لما أرادت التوجه للبنازة بما أن ليلى معدة من النواحين المستعدين فى المحازن وانما تعلمت هذا الفن بجميع فروعه منذ صباها فلا يستغنى الحال مطلقا لوجود هذه المرأة فى مثل هذا الوقت ولذا فلها الافضلية فى التوجه بدلا عنى (زينب) بما انى كردية ولا أعرف الا قليلا من عوائد العجم وانها لم تفعل ذلك الا لكراهتى وقصد حرمانى من المنديل الاسود ومنافع أخرى وعلى ذلك تركونى فى المنزل بمفردى وتوجه جميعهن لمنزل المتوفية ومع ما كنت أدعيه من الغضب ومقاومة ليلى فى توجهها بدلا عنى بحدة ظاهرية حمدت الله لاجتماعنا سوية فلنغتنم الآن لذة وقتنا هذا بالانس والانشراح

(قال الحاج بابا) ثم انها توجهت الى المطبخ لتجهيز صينية طعام لفطورى وتركتنى أمتع نظرى وأسلى نفسى بما خفى داخل الحرم عن العزاب مثلى فدخلت أولا الى بلوكات الخانم الخصوصية فوجدتها مطلة على بستان وبها شباك عريض متسع بدرف من الزجاج الملون وباحدى زواياه مخدع معد لجلوسها وعليه سجادة ثمينة مطبوقة نصفين وباسفله وسادة لراحة رجليها مكسية بالجوخ المطرز بالقصب وفى كلا طرفيها زر من السمق الغالى ومغطاة بغطاء من الشاش وبجانب المخدع مرآة لطيفة مدهونة بالبوية الجميلة وصندوق مشتمل على جميع أنواع العجائب وبه زجاجات القطرة وآلاتها الصغيرة وألوان مختلفة من الصينى وزوج علاقات مربوط بهما التمائم وبه من أنواع الزينة ما يلصق بالشعر ويعلق على الجبهة وأيضا سكاكين ومقصات وأشياء أخرى وبالقرب من المخدع وتر وطنبورة وأمام انبوبها المفوضوعة مطبقة فى ركن آخر أبعد من هذا وملفوفة بغطاء من قماش أزرق وأبيض ثم رأيت جملة رسومات بدون براويز معلقة على الحائط وباعلى

سور المكان رف مزدحم بانواع الزجاج والطشوت وخلافها وعثرت فى ركن آخر على جملة زجاجات من نبيذ شيراز ومن ضمنها زجاجة مغطاة بزهرة برى ان الخانم شربت منها هذا الصباح تنتعش جسمها وتقوى نفسها المدة الذى تمكثها فى المحزنة

(فقلت فى نفسى) ان النبى عليه السلام لم يراع كثيرا فى هذا المنزل ولكن ذلك مما يجعلنى مرة أخرى أعرف قيمة مايدعون به رياء امام الناس من الطهارة وثبات الايمان وان حكيمنا مع مايظهره من التقوى الاسلامية واعطاء الجرع والشراب فى الخارج يستعمل بدل ذلك الكمية الوافرة من النبيذ فى منزله

وبحال ما انتهيت من الفرجة على هذا المحل ومافيه من العجائب التى أدهشتنى وعلى محلات الخدم أيضا كانت زينب جهزت الفطور فى أودة الخانم فجلسنا على المائدة قبال بعضنا وانكبت على المخدة السابقة الذكر ولم أجد فى عمرى ألذ من هذا الطعام طعما وصناعة حيث يحتوى على صحن من الارز المفلفل الابيض بلون الثلج وبجانبه صحن من اللحمة المشوية مقطعة قطعا صغيرة وموضوعة داخل شقة كبيرة من الخبز ثم وبطيخة أصبهانية مشقوقة قطعا مستطيلة وبعض من الكمثرى والمشمش وأيضا عجة مسخنة يظهر انها من بقايا طعام وجبنة وبصل وكراث وزبدية من اللبن الحامض وصنفين مختلفين من الشراب وزيادة على ذلك بعض الحلوى وصحن مملوء من العسل الجديد

فلما رأيتها جالسة امامى كالبدر فى ليلة أربعة عشر زاد هيامى وتوقدت نيرانى فابتدرتها بالتحية والتهانى بما عناه لسان حالى

أهلا وسهلا بالحبيب ومرحبا * فلقد وفالى بالوعود وأطربا
أحيا فؤادا كاد يتلفه الاسى * مذبات فى أيدى الغرام معذبا

لولا الصبا من نحو زينب كان ينـ ـعشه لاودى طائعا ولا الصبا

فاستبشري ياعين بالقيا ويا * قلبي تهنأ فالحبيب تقربا

فاعجبها كلامي وشكرتني على نظامي ثم صمتوا وانا أبرم في شواربي بعدان تأملت في الاصناف اللطيفة التي امامي قائلا ﴿وحياة املك يازينب﴾ اني لفي غاية العجب من سرعة تو ضيبك هذا الطعام كله في أقرب وقت وان هذا لفطور يحق تقديمه للشاه فقالت زينب

(آه ياحاجي) أمامن جهة هذا فلا تتعب أفكارك بل امدد يدك وتناول منه قدر طاقتك فان السبب في السرعة هو ان سيدتي أمرت بتحضير الفطور قبل دخول الليل ثم عاودت أفكارها هذا الصباح بالاكل في منزل المتوفيه وتركته لي وماذلك بكثير اليك فلنأكل فقد طاب الوقت بالانس والانشراح

(قال الحاج بابا) فأكلنا ونحن مسرورون وفرحون ونحن نتسامر بلذيذ الحديث من قديم وحديث وتركنا جزأ يسيرا منه على حسب العادة احتراما للمائدة وربما يأتي أحد من بعد نا يريد الاكل وبعدان غسلنا أيدينا وضعنا النبيذ امامنا وخلعنا العذار وكشفنا عن الهوى الاستار ونحن نهنئ بعضنا باجتماعنا حيث وجدنا نفسنا في خلوة بعيدة عن فكر الرقيب ومتمتعين باعظم لذة ونقول اننا الآن أسعد الناس على وجه الارض ثم انها مدت يدها الى طبق الفاكهة وناولتني تفاحة فاخذتها وقبلتها ووضعتها أمامي وعدت للعود وصلحته وغنيت

فديت من حيا بتفاحة * كأنها في اللون من وجنته

نسيمها يخبرني انها * تسترق الانفاس من نكهته

لما حكت نوعين من وصفه * قبلتها شوقا الى رؤيته

فاعجبها كلامي وأخذت سكينا وشطرتها نصفين ووضعت منها قطعة في فمي

فأكلتها وغنيت هذين البيتين

أعطت يداه محبه تفاحة * تعطي المحب امانه من صده

فعلت حين لثمتها من كفه * انى سألثم مثلها فى خده

فقالت لقد أجدت فى المقال وأحييت قلبا أراه السقام ثم أشارت الى الكمثرى وقالت بم نصف هذا القوام فقلت

وكمثرى تراه حين يبدو * على الاغصان مخضر الثياب

كثدى مليحة أبدته تيها * له طعم ألذ من الشراب

فقالت عجبا واثنت طربا وأخذت سفرجلة من الطبق وقطعتها كالحلق وناولتنى قطعة وقالت كيف تجد هذا المذاق أيها العاشق المشتاق فقلت

حاز السفرجل أوصاف الورى فغدا * على الفواكه بالتفضيل مشكورا

كالراح طعما ونشر المسك رائحة * والتبر لونا وشكل البدر تدويرا

فقامت واعتنقتنى ومالت على وقبلتنى وقالت لقد شفيت الفؤاد بعد ان أحرمتنى طيب الرقاد ولم يبق عندنا غير المشمش فهل لك من واحدة فانه للقلب منعش فقبلتها وقبلتها وقلت

ومشمش جاء نا من أعجب العجب * أشهى الى من اللذات والطرب

كأنه وهبوب الريح تنشره * بنادق خرطت من خالص الذهب

ثم انها ملأت كاسا من النبيذ وناولتنه لى فشربته وأعقبته بالثانى والثالث حتى تخيلت أمامى انها من الحور فاخذت العود وغنيت هذين البيتين

وكردى اللحاظ تروم قتلى * عقاربه صدغه فاقول رومى

ومن شغفى بحسن القد منه * أعار على الغصون من النسيم

فملأت كاسا رابعا وأرادت تناولنى اياه فاقسمت عليها بشربه وملأت لها آخر فشربته فزاد خدها فى الاحمرار ومن شدة انبساطها أخذت العود

وضربت

وضربت عليه جملة أدوار ثم قالت زدني سرورا بما عندك من لطائف الاشعار فان هذا مما يولد الافراح ويطيب به شرب الراح فاخذته منها وأصلحته وغنيت هذه الابيات

أدم يارب خلواتي بحبي * لاقضي بالتواصل منه ديني
ولا تجعل هنالك سوى لساني * سفيرا بين أحبابي وبيني
وان قدرت انسانا يرانا * بحفك فليكن انسان عيني

فقالت لا تخف أيها الحبيب فليس هنا من رقيب فعند ذلك اشتد بي الفرح والسرور ولعبت بعقلي الخمور وعدت للعود بعد ان وضعته جانبي ونسيت محذورات مستقبلي وأصلحت أوتاره وغنيت أبياتا من كلام الحافظ تعلمتها في صغري وكنت اغني بها في الحمام لاطرب بها من يسمعني وهي شبيهة بقول محمد بن العفيف حيث قال

سهر العيون يلذ للمشتاق * والسقم خير ملابس العشاق
فاختر سهادك في الهوى عوض الكرى
واخترقناك في جمال الباقي

وصل المدامة والنديم ومنزل الشعانات واخضع ساجد الساقي
واسكن جنان الخلد بالنار التي * لم ترم غير الهم بالاحراق
صهباء ترمق من جفون حبابها * من غير ما هدب ولا آماق
يسعى بها الدن القوام مهفهف * كالغصن ماس مروق الاوراق
أحداقه ملئت من الاقداح أم * أقداحه ملئت من الاحداق

فما انتهيت من غنائي الا وانطربت ومالت وانثنت وغشي عليها فلما أفاقت قالت انها لم تسرور ولا لذة مدة حياتها أحسن من هذه الساعة وانها نسيت ان كلا نا أقل الناس ذلا واحتقارا وانها جارية في الاسر وأنا أحوج جميع أهل العصر ومازلنا على تلك الحالة والخمر يلعب بعقولنا حتى نهيأ لنا

ان جميع الادوات التي حولنا هي ملك لنا والخمر وعشقنا لا ينقضيان مدى الدهر هذا وبعد ان غنيت جملة أدوار ونحن نملأ كاسا بعد كاس حتى افرغنا الزجاجة وجدت الوقت فسيحا فتشوقت لسماع تاريخها فقلت لها ﴿يا زينب﴾ لقد وعدتيني من مدة ان تحدثيني بتاريخك وما جرى لك وأسباب أسرك وطلوعك من بلدك لحد الآن لاني أرى ان هذا الوقت أسعد الاوقات وفيه تستحب المسامرات سيما ما حصل لك من المخاطرات بما ان اجتماعنا بالليل غير معلوم بالتحقيق فاجابت طلبي بغاية البشاشة وهي مسرورة الخاطر وقالت ان رحلتي عجيبة وحكايتي غريبة وما فيها من المخاطرات والمشاق تدعي الناس لسماعها بكل اشتياق فالق الى آذانك واسمع يا حامي بابا تاريخي الذي لم يطرق مثله لاسماعك

﴿انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني وأوله الفصل الحادي والعشرون في تاريخ زينب الجارية الكرجية﴾

﴿التفات﴾

من أراد الحصول على الجزء الثاني فعليه أن يدفع خمسة غروش الميناوذلك للمشترك وسبعة غروش لغير المشترك لغاية صفر سنة ١٣٠٩ ومن يرغب الجزءين معا فليدفع عشرة غروش وبعد هذا الميعاد يكون ثمن الجزء الثاني عشرة غروش لعظم حجمه عن الاول

هذا وأرجو من اولي الالباب أن يغضوا النظر عما يروه من الهفوات فاني مازلت مقرا بالعجز والتقصير وأسأل الله أن يرد غبط القادح في نحره ويكفيني مقالة حضرة صاحب نهاية الارب في شعر العرب حيث افتتحها بالرد على القادح وقال ملخصا

قادحنا معاصرينا لطفي